

التوسّل في التلبّيات الجاهلية

ليلي توفيق العمري *

ملخص

يلقي البحث ضوءاً على معالم الحياة الدينية في العصر الجاهلي من دراسته التلبّيات الجاهلية، دراسة اقتصرت على الموضوعات التي تشكّل ظاهرة عامة فيها، وتبحث في المناسك العامة، والأعمال الدينية المحسوسة، والأدعية الروحية التي كان يقوم بها العرب الجاهليون، ويُقصد منها تحقيق منافع مادية ملموسة. وقد انتظمت هذه الموضوعات في ثلاثة عناوين رئيسية شملت توسّلات العرب الجاهليين لآلهتهم، ومناسك حجّهم، واحتفالاتهم الدينية؛ وذلك بناء على ما لاحظته الباحثة من سمات عامة تشترك فيها، فقد وجد أن الصّفة الدينية للتلبّيات، وطبيعة العرب الماديّين هما السّمة الغالبة على هذه التوسّلات.

وتطرّق البحث في دراسته التلبّيات إلى موضوعات فرعية فيها، جمّعها الباحث في موضوع واحد، إذ لا يشكّل كل موضوع منها - في حجم مادته ومضمونه - موضوعاً قائماً بذاته، وهي موضوعات ذات صلة - على نحو تأويلي - بحياتهم الدينية، خاصة في نظرهم إلى آلهتهم نظرة حسّية، وفي علاقتهم بها علاقة تقوم على الشعور بالضعف أمامها والتصاغر لها، على أن هذا الشعور ينتقي في علاقة إحدى الطبقات الاجتماعية الرفيعة - كطبقة الملوك - بها، حيث أظهرت التلبّيات أنها علاقة فوقيّة عالية.

وقد يكون لارتباط التلبّيات عند العرب الجاهليين بطبيعة حياتهم الدينية، وتعدّد حاجاتهم أثر في تنوّع التلبّيات أداءً ومضموناً، تنوّعاً يقوم - فيها كلها - على إرضاء آلهتهم والتقرّب إليها بوسائل متعدّدة، ذكرنا بعضاً منها في التوسّلات التي عالجها هذا البحث.

ولعل الباحث قصد في بحثه أن يضيف جديداً إلى ما عُرف عن الحياة الدينية في العصر الجاهلي من الشعر والأخبار، وأن يزيد تفصيلاً في الحديث عن بعض جوانبها، إذ كانت التلبّيات الجاهلية أوسع حديثاً، وأوفى إشارة منها إليها.

الكلمات الدالة: أدعية، تلبية، توسّل، حجّ.

المقدمة

لقد تنوّعت توسّلات العرب في التلبّيات الجاهلية تنوّعاً جعلني أنظر إليها في دراستها من عدة زوايا، اقتصر هذا البحث على اثنتين منها؛ فأما الأولى منهما فهي الصّفة الدينية للتلبّيات الجاهلية، وهي صفة جاءت من ارتباط التلبّيات بالحياة الدينية لعرب الجاهلية ارتباطاً حاكوا فيه عقيدتهم الوثنية من جهة، وما بقي فيهم من عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام من جهة ثانية، خاصة فيما يتعلق بمناسك حجّهم التي شابها - في بعضها - مناسك العهد الإبراهيمي وكانت ذكّرت هذه

التلبّيات، وكتب الأخبار فيما بعد.

وأما الثانية منهما فهي طبيعة العرب الماديّين التي لمسانها في غايتهم من الأدعية الروحية، وتوسّلاتهم لآلهتهم، واحتفالاتهم العامة، وطقوس عبادتهم في طوافهم حول الأصنام - في تحقيق منافع مادية محسوسة تكون في استجابة آلهتهم لهم في تحقيق حاجاتهم وتلبية مطالبهم.

ولا شك أن هاتين الرؤيتين للتلبّيات الجاهلية فرضتا عليّ أن أقسمها ثلاثة أقسام؛ شمل القسم الأول منها التلبّيات التي تتحدّث عن توسّلات العرب الجاهليين لآلهتهم، وشمل القسم الثاني التلبّيات التي تتحدّث عن مناسك حجّهم، وشمل القسم الثالث التلبّيات التي تتحدّث عن طقوس احتفالاتهم، تقسيماً انتظم في عنوان عام احتواها كلها هو مظاهر التوسّل في التلبّيات الجاهلية، وقد قدّمت للحديث عن هذه المظاهر

* قسم اللغة العربية آدابها، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن.
تاريخ استلام البحث 2014/6/2، وتاريخ قبوله 2014/9/21.

في إضافة الجديد عن الحياة الدينية في العصر الجاهلي زيادة على ما عُرِفَ عنها في الشعر والأخبار، وعرضاً اعتمدت في جمع مادته على بعض المظان التي أسعفتني - في عدد التلبيات فيها، وفي طولها - في تكوين صورة عنها على النحو الذي ذكرته، وكان من أهمها كتاب: الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب، واستعنتُ بعدد من المصادر الثانوية في هذا المجال مما ذكره الرواة والإخباريون العرب من روايات تتصل بموضوعي، وكانت العودة إلى هذه المظان ضرورة لإكمال الصورة العامة عنه، ولإفادة القارئ في معرفته معرفة شاملة بالأجواء الدينية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهليين في هذا النوع من المعالجة؛ منها كتاب: المُحَرَّر لابن حبيب وتاريخ اليَعْقُوبِي ورسالة الغفران للمَعَرِّي وبعض كتب الأدب العام وكتب الحديث وشروحه، واستفدتُ من كتاب الدكتور عادل البياتي: دراسات في الأدب الجاهلي⁽⁶⁾، ومن بحثه: أصالة الوحدة العربية في أقدم النصوص الدينية في تفتيح جوانب البحث لي.

التوسل في التلبيات الجاهلية

أ. معناه

لا بدّ - قبل البحث في مظاهر التوسل في التلبيات الجاهلية - من بيان المعنى المقصود بالتوسل عند علمائنا القدامى؛ وذلك بعرض آرائهم في تفسيره عرضاً يظهر اتفاقهم على معناه، اتفاقاً صريحاً أو تأويلياً، ويتناسب مع السياق الذي ورد فيه في مُحْكَم كتابه العزيز، وفي الشعر الجاهلي، وهم إذ يفسرونه تفسيراً يكاد يكون واحداً عندهم إنما قرئوا تفسيره بالله عز وجل، فصار تفسيره به جلّ وعلا الأساس في الأصل اللغوي له، وما خروجهم في تفسيره على هذا النحو إلا خروج على القرنين الذي قرئت هذه اللفظة به، وهو غير الله عز وجل. ذكر ابن منظور أنهم يقولون⁽⁷⁾: "وسل فلان إلى الله وسيلة⁽⁸⁾ إذا عمل عملاً تقرب به إليه⁽⁹⁾... وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل"؛ وعليه فإن معنى وسل فلان وتوسل قد جاء من وصول المرء إلى حالة معنوية (وهي القرب منه عز وجل)، وصولاً ينصرف إلى معنى الإحساس بها، التي كان الأصل في الوصول إليها قيام المرء بعمل مادي محسوس قياماً مشروطاً بـ "إذا"، ولذلك فسّر المفسرون واللغويون الوسيلة بالقربة⁽¹⁰⁾، أي العمل، وما قولهم⁽¹¹⁾: "توسلت إلى الله بالعمل" إلا دليل على ذلك، وأن استخدامهم المعنى (وهو العمل) عوضاً عن اللفظ (وهو الوسيلة) إنما جاء من دلالة أحدهما على الآخر في الاستعمال، يؤيد ذلك المعاني الأخر التي ذكرها الطبري عن أهل التأويل في معنى الوسيلة، وتدخل في

بالحديث عن معنى التوسل عند علماء اللغة والتفسير، حديثاً اقتضته طبيعة الموضوع الذي أقوم بدراسته، وكنت خلصت فيه إلى أن معنى التوسل هو التقرب إلى الغير بوسيلة أي بعمل. وتشكل التلبيات الجاهلية - في ضوء معطيات البحث - الإطار الديني الذي حمل توسلاتهم لآلهتهم وشمل مطالبهم التي توجهوا بها إليها، حملاً استوعب أدعيتهم الروحية ومناجاتهم آلهتهم، مشفوعة بقيامهم ببعض الأعمال المادية المحسوسة، التي تجسد إيمانهم، وتعبّر عنه بصورة عملية واقعية، كالهدايا والقربان والشعائر العملية التي تنصرف إلى الحج، وأداء الصلاة، وتقديم الصدقات.

وقد وجدت أن من الضروري أن أشير في المقدمة إلى معنى التلبية في أقاويل اللغويين، وروايات الإخباريين، وآراء المفسرين إشارة موجزة تمهيداً للحديث عن توسلات عرب الجاهلية بها، إذ تبين أن المقصود بالتلبية إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربه، وقولهم في الإلهال بالحج، لَنَبِيكَ اللَّهُمَّ لَنَبِيكَ، معناه إجابتي لك يا ربّ، وقيل: معناه إخلاصي لك، مأخوذ من لَبَّ وأَلَبَّ⁽¹⁾، وهذا هو المفهوم من التلبية بالمعنى الاصطلاحي في الحج، ويعني الحج: قَصْدُ التَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ خَاصَّةً بِالْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ قَرَضاً وَسُنَّةً⁽²⁾، وبذلك فإن المعنى الذي ذكرته للتلبية يتسق مع مفهوم الحج في الاصطلاح الديني في التوجه إلى البيت للقيام بالسنك الدينية، ولكن العرب الجاهليين كانوا يؤمنون ببيت أصنامهم - والبيوت الأخرى - للتقديس والعبادة، في موسم الحج وغيره⁽³⁾، استجابة لحاجة مادية، إما لدفع ضرر عنهم، وإما رغبة في تحقيق مطالبهم، وبناء على ذلك فإن التلبية لفظة مختصة بالحج، في حين أن الإلهال لفظة عامة تستعمل في الحج وغيره، لأنه يقال لكل رافع صوته مُهْل⁽⁴⁾، ومن هنا قيل للملبي في حجة أو عمرة مُهْلٌ لرفعه صوته بالتلبية⁽⁵⁾.

ورأيت أن أختم البحث بتلبيات ذات موضوعات فرعية لها صلة - على نحو تأويلي - بالحياة الدينية لعرب الجاهلية، تكشفت لي من إجاله النظر في التلبيات الجاهلية، وهي موضوعات تشير إلى علاقة الجاهليين بآلهتهم، وتشكل هذه العلاقة في أشكال ثلاثة أبرزت نظرتهم إلى البنات وتفضيلهم للذكور عليهن، وشعورهم بسطوة الملوك شعوراً انعكس على علاقة الملوك بآلهتهم، وتصورهم للذات الإلهية تصوراً مادياً حسيّاً.

وقد اتبعت في عرض الصيغ التلبية المنهج الوصفي مشفوفاً بالأسلوب الأدبي في تحليل التلبيات؛ تحليلاً موضوعياً يقوم على دراسة مضمونها والتعليق عليها بالقدر الذي يسعني في الوقوف على موضوعاتها (عناوينها) العامة، ويحقق هدفي

هذا المعنى صراحة أو تأويلاً، وهي تتضمن المحبة، والمسألة والفقرية، والفقرية والزلفة، والتقرب إليه سبحانه بطاعته والعمل بما يرضيه⁽¹²⁾، لأن تحقيق المرء لأي معنى من هذه المعاني لا بد أن يكون مسبوقاً بعمل، وهو الفقرية منه سبحانه وتعالى التي عنيها في معنى الوسيلة. ويلاحظ في المعاني التي ذكرها المفسرون واللغويون في التوسل والوسيلة ارتباطها بالذات الإلهية، وما قول ابن حجر في تعريفه الوسيلة "هي ما يُقَرَّب به إلى الكبير"⁽¹³⁾ إلا تأكيد لهذا الارتباط تأكيداً اشتق من معنى الأصل، لأن الكبير هو الله عز وجل.

ولا شك أن العمل الذي يتقرب المرء به إلى الله هو العمل الصالح، وبذلك فسرت الوسيلة في قوله تعالى⁽¹⁴⁾: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» إذ "يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجوداً حياً يعمل بطاعة الله، ويتقرب إليه بالصلح من الأعمال"⁽¹⁵⁾، وفي قوله تعالى يخاطب المؤمنين⁽¹⁶⁾: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»؛ فقد قال الطبري في معنى الوسيلة فيه⁽¹⁷⁾: «واطلبوا الفقرية إليه بالعمل بما يرضيه»، والعمل الذي يرضيه سبحانه وتعالى ويتوسل به إليه إنما ينحصر في "فعل الخيرات واجتناب المعاصي"⁽¹⁸⁾، كما في قول لبيد بن ربيعة يذكر الواسل في توسله إلى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح⁽¹⁹⁾:

أَرَى النَّاسَ لَا يَذُرُونَ مَا قَدَّرَ أَمْرُهُمْ

بَلَى: كُلُّ ذِي لُبٍّ إِلَى اللَّهِ وَاسِلٌ
وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول (ﷺ) وطاعته، وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في الآية السابقة⁽²⁰⁾.

والعمل الصالح يُورث الإنسان منزلة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال اللغويون - على المجاز - في معنى الوسيلة إنها "المنزلة عند المَلِك" و"الدرجة"⁽²¹⁾، والأصل في هذا المعنى قد يكون أخذ من حديث رسول الله (ﷺ) في قوله⁽²²⁾: "سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ". وقوله⁽²³⁾: "مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"؛ فقد فسّر ابن منظور الوسيلة في الحديث الثاني فقال⁽²⁴⁾: "هي في الأصل ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيء ويُقَرَّبُ به، والمراد به في الحديث القُرْبُ من الله تعالى، وقيل: هي الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وقيل: هي مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ". ولا اختلاف في المعاني التي احتملتها الوسيلة في الحديث اختلافاً تأويلياً يفرق بين بعضها بعضاً في المعنى، وفي دلالة المعنى دلالة وظيفية على الغاية

التي وُضِعَ لها، لأن كل معنى من هذه المعاني يفضي إلى المعنى الآخر صعوداً أو نزولاً، على أن أقوى المعاني التي احتملتها هي المنزلة في الجنة كما فسرها الرسول (ﷺ) وأمرنا أن نسألها الله له؛ فقد ذكر ابن كثير في تفسير الوسيلة تفسيراً ينحو إلى دلالتها الدينية في الحديث - بعد أن فسرها تفسيراً لغوياً⁽²⁵⁾ - ما يشير إلى قطعه بهذا التفسير قطعاً غير صريح، دون أن يذكر احتمالات آخر في تفسير الوسيلة تُحمّل على قول من قال: "قيل كذا وكذا في معناها، وإلى أنه الأصل في التفسير اللغوي لها؛ فقال⁽²⁶⁾: "والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله (ﷺ) وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش". وهذه المنزلة هي التي تجعله يشفع لأمته يوم يقوم الحساب "فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود"⁽²⁷⁾، يؤكد ذلك قوله تعالى⁽²⁸⁾: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً»، وأن شفاعته لهم إنما تكون من قرّبه من الله تعالى، لأن "الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله فتكون (أي هذه المنزلة) كالفقرية"⁽²⁹⁾ التي يتوسل بها⁽³⁰⁾، قُرْباً تحقق له (ﷺ) بما قدّم من العمل الذي يرضيه سبحانه وتعالى؛ يقول ابن تيمية⁽³¹⁾: "فهذه الوسيلة للنبي (ﷺ) خاصة ... أمرنا أن نسألها للرسول وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي (ﷺ) استحقوا أن يدعو هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء"، وهذا ضرب آخر من التوسل هو التوسل بدعائه وشفاعته (ﷺ)⁽³²⁾.

ويكون التوسل لغير الله؛ فقد ذكر ابن منظور في معنى "الوسيلة ما يُقَرَّبُ به إلى الغير"⁽³³⁾، وهذا الغير هو الإنسان كما يفهم من قول الطبري⁽³⁴⁾: "الوسيلة: هي الفعيلة من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى تقرّبت إليه؛ ومنه قول عنترة العبسي⁽³⁵⁾:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْحَلِي وَتَحْضَبِي

ومنه قول الآخر⁽³⁶⁾:

إِذَا غَفَلَ الْوَاشُونَ غَدْنَا لَوْصِلْنَا

وَعَادَ النَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

وقد توسل عرب الجاهلية توسلات كثيرة في موضوعات متعدّدة⁽³⁷⁾، كانوا توجهوا بها إلى الله سبحانه وتعالى أو إلى آلهتهم لتحقيق حاجات لهم مادية دنيوية نفعية، وكانت التلبّيات الجاهلية الصورة الدينية الحية من جهة، والناطقة بأمالهم وأمانيتهم وهمومهم من جهة ثانية، والأدبية غير الناضجة من جهة ثالثة التي حملت توسلاتهم المتنوعة إلى آلهتهم المتعدّدة، حملاً أظهر عقيدتهم في حفاظهم على مقدّمة التوحيد⁽³⁸⁾ في مطلع التلبّيات، وعلى ما بقي فيهم من إرث إبراهيم عليه

السلام، وفي تعبدهم للأصنام والأوثان والأنداد التي أشركوها مع الله سبحانه وتعالى في التقديس والعبادة.

ب. بمظاهره:

1. توسلات للآلهة

إن من أكثر الموضوعات شيوعاً وانتشاراً في هذه النصوص التلبيوية، وأهمها قيمة في حياة العرب العملية توسلاتهم المتنوعة لآلهتهم المتعددة، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه التوسلات ربما كانت دافعاً قوياً لنشأة التلبية عند عرب الجاهلية بهذه الصيغ الأدبية - غير الناضجة - في ذلك الإطار الديني الذي يحكي عقيدتهم، وذلك لحاجتهم إلى الإفصاح عن مشاعرهم وحاجاتهم المتنوعة كآمالهم وأمانيتهم في الحياة، وفي ذريتهم، وكذلك أوجاعهم وآلامهم التي تسوءهم إلى من يعتقدون - أو يظنون - أنه يسمع إليهم⁽³⁹⁾، ومن ثم يستجيب لرغباتهم ويحقق مطالبهم، فوجدوا في التوجه لأصنامهم والطواف حولها وما يؤدون من واجبات مفروضة عليهم إليها⁽⁴⁰⁾، منفساً - لا يضاهاى في قيمته - لإبراز مكنون الذات، وفرصة مناسبة لإعلانه على الملأ؛ فانصرفوا إلى القول يعبرون به عن تلك الحاجات، ويهتفون بها في طقوسهم وشعائيرهم، منشدين لها ومغنيين في صورة تعكس ما يريدون، وتشرح خلجات النفس وما داخلها من فرح وسرور، أو اعتورها من همٍّ وغمٍّ، وفي قالب أدبي كان في بعضه أقرب إلى الشعر، وفي بعضه الآخر كان أقرب إلى النثر⁽⁴¹⁾، وهو أمر تؤكد التلبيات نفسها، ففي تلبية همدان إشارة إلى أن الآلهة تسمع دعاءهم؛ فهم يقولون⁽⁴²⁾:

لَبَّيْكَ مَعَ كُلِّ قَبِيلٍ لَبَّوْكَ هَمْدَانُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ
تَدْعُوكَ فَاسْمَعْ دَعَاءَهَا تَقِي جَمِيعَ الْمُلُوكِ وَالتَّوَسَّلْ لِلْآلِهَةِ يَكُونُ
بِوَسِيلَةٍ، وَذَلِكَ إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيْهَا بِعَمَلٍ⁽⁴³⁾، بحيث يشعر أنه توصل به إليها. وتصور التلبيات التوسل مرتبطاً بالتصاغر والتذلل للآلهة إلى حدِّ العبودية، وليست ثمة صفة يتصف بها المتوسِّل أفضل من هذه الصفة يسترضي بها الآلهة لتستجيب لمطالبه، ولذلك نلاحظ بعض الألفاظ التي تدل على هذا المعنى يتردد صداها في التلبيات الجاهلية كقول قيس عيلان في الشطر الأخير في تليبيتها⁽⁴⁴⁾:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ
أَتَتَكَ قَيْسُ عَيْلَانَ مُذِلَّةً لِلدِّيَانِ
وتصف كل من حمير وهمدان نفسيهما في تليبيتها بأنهم عبيد للآلهة؛ فيقولون⁽⁴⁵⁾:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ إِنَّنَا عَبِيدُ
وبالغث بعض القبائل في التعبير عن عبوديتها للآلهة باستخدامها كلمة "الرق" التي توحى بصورة من صور الذلُّ

والخضوع عاشها الرقيق في العصر الجاهلي؛ كما تقول بكر بن وائل في ذلك⁽⁴⁶⁾:

لَبَّيْكَ حَقًّا حَقًّا تَعْبُدًا وَرَقًّا

وأكثر ما تلاحظ معاني الخضوع التام للصنم في تلبية ربيعة التي جمعت بين الطاعة للآلهة والسماع لها؛ تقول⁽⁴⁷⁾:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ مِنْ رَبِّعَةٍ

سَامِعَةٍ [لرَّبِّهَا] مُطِيعَةٍ

ومثلها تلبية فُضَاعَةَ في الدلالة على المعنى نفسه؛ حيث تقول أيضاً⁽⁴⁸⁾:

لَبَّيْكَ عَنْ فُضَاعَةٍ لَرَّبِّهَا دَفَاعَةٌ

سَمْعًا لَهُ وَطَاعَةً

وتُظْهِرُ التلبيات أنهم كانوا يتوسلون إلى كبير الآلهة، أو ربِّ الأرباب، أو الربِّ الأعلى ربِّ الأرض والسماء؛ لتحقيق مطالبهم الكثيرة التي تُعْجِزُ الأصنام العادية عن تليبيتها، كما في تلبية مَدْحَج، وتلبية كِنْدَةَ وَحَضْرَمَوْتَ، وتلبية الأزد، وتلبية النَّخَع⁽⁴⁹⁾. وهم يتوسلون إلى الربِّ الأعلى مستشفعين إليه⁽⁵⁰⁾ في استجابة مطالبهم بأحبِّ الأشياء إليه، كما في تلبية بَجِيلَةَ وَدُوسَ وَخَنْعَمَ⁽⁵¹⁾، أو برحمته التي وَسَّعَتْ كل شيء كما في تلبية قَيْسِ عَيْلَانَ السابقة.

وتذكر التلبيات المعاناة التي يعانيتها المتوسِّل في الوصول إلى الآلهة، فهو يتحمَّلُ المشقة وعناء السفر، من أجل أن يلتبس بركة الصنم وتفضُّله بالإنعام عليه في تلبية رغباته؛ ولذلك فإن المتعبدين يشدُّون رِوَاظَهُمْ إلى إلههم، ويقطعون المسافات الطويلة، للظفر بإحسانه، متجاسرين على أنفسهم ما يلاقون من أهوال الطريق ومتاعبه؛ تقول همدان⁽⁵²⁾:

لَبَّيْكَ رَبِّ هَمْدَانُ مِنْ شَاحِطٍ وَمِنْ دَانٍ

جِنَّاكَ نَبْغِي الْإِحْسَانَ بِكُلِّ حَرْفٍ مَدْعَانُ

نَطْوِي إِلَيْكَ الْغِيْطَانُ عَلَى أَنْ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْمَعَانَةِ الَّتِي يَلَاقِيهَا

الْمَلْبُونُ هُوَ ارْتِحَالُهُمْ إِلَى رَبِّهِمُ الْأَعْلَى فِي آخِرِ اللَّيْلِ، تقول هُذَيْلُ في تليبيتها تعبر عن ذلك⁽⁵³⁾:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

لَبَّيْكَ عَنْ هُذَيْلٍ أَدْلَجْتُ بَلِيلُ

تَعْدُو بِهَا رَكَائِبُ إِبِلٍ وَخَيْلُ

تَهْوِي إِلَى رَبِّ كَرِيمٍ مَاجِدٍ جَمِيلُ

ولا يقتصر الارتحال في آخر الليل على الملبيين، وإنما هو عادة عند العرب على نحو ما نجد عند عبيد بن الأبرص

يصف رحيل قومه⁽⁵⁴⁾:

لَمَنْ جِمَالُ قُبَيْلِ الصُّبْحِ مَرْمُومَةٌ

مُيَمَّمَاتٌ بِلَاداً غَيْرَ مَعْلُومَةٍ

وعند علقمة الفحل يصف رحيل الأحبة⁽⁵⁵⁾:

لَمْ أَذِرْ بِالْبَيْنِ حَتَّى أُرْمَعُوا ظَعْنًا

كُلُّ الْجَمَالِ، فُبَيْلَ الصَّبْحِ مَرْمُومُ
إن غياب النصوص الموثقة التي تتحدث عن رحيل الملبين إلى الصنم في آخر الليل يجعلني أضغ عدة احتمالات أبرر بها رحيلهم إليه في هذا الوقت، منها: أن المُرْتَجِلِينَ للصنم لا تَغْفَلُ لهم عَيْنٌ فلا ينامون، وهم قلقون مضطربون على أعمالهم ومصالحهم التي تحتاج إلى الرجاء والتوسل للآلهة، فما يكاد ينقضي الشطر الطويل من الليل، وهم على هذه الحالة، حتى ينتهزوا الفرصة المناسبة - فيما تبقى منه - للرحيل إليها. ومنها: أنهم يرتحلون مبكرين - لطول المسافة - ليصلوا إلى الصنم في الوقت المناسب، أو أن حاجاتهم الملحة فرضت عليهم الخروج في هذا الوقت المبكر حتى يدركوا الآلهة مسرعين، فلا تتأخر عليهم في الاستجابة لمطالبهم. ومنها: أن المرتجلين في آخر الليل يكونون في أوج نشاطهم بعد أن أخذوا قسطاً من الراحة في الشطر الأكبر منه، ومن ثم تمتعوا بنسمات الليل - صيفاً - قبل أن يدركهم حرّ النهار أو هاجرته.

وحتى تستجيب الآلهة لمطالب أصحاب الحاجات، كان عليهم أن يعمدوا إلى إرضائها بالتخلي بالأخلاق الحميدة بأن لا يلحقوا ضرراً بأحد، وكأن توسل الملبين بهذه الصفة مطلب عند الآلهة تحقق به حاجتهم، يضاف إلى جملة التوسلات التي يتوسلون بها في تليبيتهم؛ فهم لا يخشون المتاعب التي تعترض طريقهم، ولا حرّ النهار ويزدّ الليل؛ تقول تميم (56):

لَبَيْكَ مَا نَهَارُنَا نَجْرُهُ
إِذْ لَاجُهُ وَحَرُّهُ وَقَرُّهُ

لا نَنْقِي شَيْئاً وَلَا نَضُرُّهُ

وتظهر المعاناة في أشد صورها في الحجّ إلى البيت، فالمتعبدون حريصون على الوصول إليه، وتأدية مناسك حجّهم فيه، وتقديم الواجبات المفروضة عليهم إليه (57) مهما كانت هذه المعاناة، ولذلك فهم يتحملون أهوال الطريق، والمسافات الطويلة، وتقلبات المناخ بين حرّ وبرد، والسير ليلاً بين الجبال والوهاد؛ تقول مدحج في تليبيتها تُعَبِّرُ عن هذه المتاعب (58):

إِلَيْكَ يَا رَبَّ الْجَلَالِ وَالْحَرَمِ

جَنَّاكَ نَدْعُوكَ بِحَاءٍ وَهَلْمُ
نُكَايِدُ الْعَصْرَ وَلَيْلًا مُدْلِهِمْ
نَقْطَعُ مِنْ بَيْنِ جِبَالٍ وَسَلْمُ
وَهَوْلٍ رَعْدٍ وَيُرُوقٍ كَالضَّرْمِ
وَتُعَبِّرُ قُضَاعَةً عَنْ هَذَا الْجُهِدِ وَالتَّعَبِ بِصَرِيحِ اللَّفْظِ؛ فنقول (59):
نَوْمٌ بَيَّتَ الْمُسْتَجِيبَ الْمَعْبُودَ

نُعْطِي إِلَهَ الْبَيْتِ مِنَّا الْمَجْهُودَ
والمرتحلون إلى الآلهة متنوعون، ولعل طبيعة توسلاتهم للآلهة فرضت عليهم اختيار الفئة التي ترتحل إليها، فقد ترتحل القبيلة بأفرادها كلهم إلى الآلهة دون تحديد (60) على اعتبار أن

الرحلة إليها واجب ديني، وأن هذا العدد يكون ملزماً للآلهة لإجابة مطالبهم، وقد تتخير القبيلة من أفرادها الشيوخ والولدان ترتحل بهم إلى الآلهة، حيث يأتون إليها مشاة وركباناً، مبالغة في التذلل والتصاغر للصنم؛ لأن هذين الصنفين من المُرْتَجِلِينَ هم أضعف أفراد القبيلة بأساً؛ تقول قيس عيلان في تليبيتها (61):

لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ
أَنْتَكَ قَيْسُ عَيْلَانَ
رِجَالُهَا وَالرُّكْبَانُ
بَشِيخُهَا وَالْوِلْدَانُ

وقد يكون المرتحلون إلى الآلهة من المشاة والفرسان، ولعل اختيار هذين الصنفين من الناس للسفر إلى الصنم له دلالة في أن المشاة من الأقوياء الذين يتحملون عنت الرحلة ومتاعبها، ولهم جلد على قطع المسافات الطويلة، وأما الفرسان فلأنهم يتمتعون بالشجاعة الكافية التي تمكنهم من اقتحام الأهوال، والجرأة في تحدي الصعاب؛ تقول غسان (62):

لَبَيْكَ رَبَّ غَسَّانَ
رَاجِلُهَا وَالْفَرَسَانُ

ولأن العرب يدركون أهمية الارتحال إلى ربّ الأرباب أو كبير الآلهة في إجابة حاجتهم، فقد دفعهم هذا الأمر إلى أن يتركوا كل شيء هو دونه في القيمة عندهم، وكل ما يمكن أن يكون سبباً في تأخر وصولهم إليه، فهم يذكرون أنهم خلقوا أوتانهم والقائمين عليها وراءهم، حتى أطفالهم لم يحملوهم معهم؛ تقول هذيل وقد عقد أفرادها العزم على الرحيل، وتهيؤوا للسفر (63):

وَخَلَقْتُ أَوْثَانَهَا فِي عَرْضِ الْجَبَلِ

وَخَلَقُوا مَنْ يَحْفَظُ الْأَصْنَامَ وَالطُّفِيلَ

فِي جَبَلٍ كَأَنَّهُ فِي عَارِضٍ مُخِيلٍ

وتذكر التليبات الأعمال التي توسل بهم الملبون إلى آلهتهم، وتقف العبادة على رأس هذه الأعمال؛ فهي من أهم الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى إلهه ليستجيب لمطالبه وتوسلاته؛ تقول مدحج في تليبيتها (64):

لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ
لَبَيْكَ أَهْبْنَا بِمَا لَدَيْكَ

فَنَحْنُ عِبَادُكَ، قَدْ صِرْنَا إِلَيْكَ

وتكون شعائر العبادة للمتوسل بالطواف حول البيت، وترديد التلبية بالإنشاد في هُتاف جماعي يضم أفراد القبيلة كلها، تقول بجيلة في تليبيتها (65):

لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ
لَبَيْكَ عَنْ بَجِيلَةَ

ذِي بَارِقٍ مُحِيلَةَ
الْفَخْمَةِ الرَّجِيلَةَ

جَاءَتْكَ بِالْوَسِيلَةَ
بَنِيَّةِ الْفَضِيلَةَ

فَنَعِمَتِ الْقَبِيلَةُ
حَتَّى تُرَى طَائِفَةُ

بِكَعْبَةِ جَلِيلَةَ

وقد تنوعت مطالب المتعبدين ورجباتهم التي يتوسلون بها

يستمتطرون ويستسقون في سِنِي القَحْط، ذَكَرًا يُقْرَبُ في مضمون بعضها مما نحن فيه، فقد "كان من عادة أهل مكة في الاستسقاء، أنهم كانوا إذا أَجْدَبُوا وقحطوا، واشتدَّت بهم الحاجة، خرج من كل بطن منهم رجل، ثم يغتسلون بالماء، ويتطيَّبون، ثم يلتمسون الركن ويطوفون بالبيت العتيق سبعة، ثم يرقون أبا قُيُس، فيتقدَّم رجل منهم، يكون من خيارهم، ومن رجال الدين فيهم، ممن يتبركون به، فيدعو الله ويستغيث، طالباً الرحمة والغوث بالمتوسِّلين إليه. ويذكرون أن عَبْدَ الْمُطَّلِب، كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مراراً"⁽⁷¹⁾.

ولا شك أن التوسل للآلهة بطلب الرحمة يعدُّ في مقدمة التوسلات التي يَلْمَس المرء أثرها، ويرى نتائجها في حياته العملية، فإذا رضيت الآلهة عنه قَبِلَتْ طلبه، وَعَفَتْ عنه، واستجابت لحاجته⁽⁷²⁾؛ يقول بنو سَعْد⁽⁷³⁾:

لَبَّيْكَ عَنْ سَعْدٍ وَعَنْ بَنِيهَا
سَارَتْ إِلَى الرَّحْمَةِ تَجَنَّبِيهَا

والتوسل بطلب الرحمة يدفع المرء إلى الإفصاح عن غايته منه، والإعراب عن حاجته التي تقوم بنفسه، وهي المغفرة من الذنوب، والهداية إلى الصواب؛ تقول خُزَاعَة في تلبيتها⁽⁷⁴⁾:

فاغفرْ فأنتَ غافرٌ وهادٍ

وتوحي بعض التلبيات - كما في تلبية هَمْدَان - أن الجهد الذي يبذله أبناؤها في الوصول إلى الإله، للحصول على بركاته وإحسانه، هو بمثابة تكفير عن الذنوب التي اقترفوها، فكانه صار شافعاً لهم عنده لإجابة طلبهم؛ فقالوا⁽⁷⁵⁾:

جِنَّتْكَ نَبْغِي الإِحْسَانُ
نَطْوِي إِلَيْكَ الْغِيْطَانُ
نَأْمُلُ فَضْلَ الْغُفْرَانُ

ويجد بعض المتوسِّلين أن الاعتراف بالذنوب، والإقرار به هو شفع آخر لهم يستشفعون به عند الإله، لأنه قلما يخلو عبدٌ من ارتكاب معصية أو اقتراف ذنب، ويعني إقرارهم بالذنوب أنهم تابوا عما اقترفوا من آثام، وأنهم أنابوا إلى الإله. وتوجَّههم إلى الإله ليغفر لهم ذنوبهم مهما بلغت نابع من إيمانهم بالمعاني التي استقرَّت في نفوسهم من بقايا عقيدة التوحيد، عقيدة إبراهيم عليه السلام⁽⁷⁶⁾؛ يقول الأشْعَرِيُّون⁽⁷⁷⁾:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا
وتقول كَلْب بن وَبَرَة معذرة عن ارتكابها المعاصي⁽⁷⁸⁾:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
لَبَّيْكَ، مَعْذَرَةٌ إِلَيْكَ

وإذا غضبت الآلهة على العبد أصابته بمكروه وأنزلت به البلاء⁽⁷⁹⁾، ويذكر الرواة والإخباريون العرب أسباباً كثيرة لذلك، منها أن مَنْ سَبَّ الأرباب، أو تطاول في كلامه عليها، أو تعرَّض للسائبة⁽⁸⁰⁾، أو لم يفِ بنذره، أو تطاول على حُرمة المقابر، أو المعابد، أو خرج على أوامر الآلهة، أو خالف سلوك المجتمع، أو

إلى إلههم، وتتوَعَّت أساليبهم في التوجُّه إليه تتوَعَّا يعتمد على نوع الحاجات التي يريدونها منه، والغايات التي يَسْعَوْنَ إلى تحقيقها، لا على المستوى الفردي وإنما على المستوى القبلي لقبيلة أو أكثر ممن تحالفوا حلفاً سياسياً ودينياً⁽⁶⁶⁾، ذلك أنه لم نجد في التلبيات الجاهلية تلبية خاصة بفرد واحد تُنسب إليه وتُعرف به دون أفراد قبيلته، لأنه مُحْكَم في ظل النظام القبلي أن يتساوى في الحقوق والواجبات مع غيره، وأن يعمل لمصلحة قبيلته في جمع كلمتها، والدين - ومن ثَمَّ التلبية - هو أحد الحقوق التي تفعل هذا الفعل، فلا تمايز ولا تمييز بينهم.

فمن الحاجات التي توسَّلوا بها تضرَّعهم إلى إلههم أن يتقرَّبوا منه، بطلب المحبة إليه في صيغة من صيغ التكثير والمبالغة؛ كقول حَضْرَمَوْت في تلبيتها⁽⁶⁷⁾:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
لَبَّيْكَ، حَبَبْنَا إِلَيْكَ

على أن أهم المطالب التي توسَّلوا بها الدعاء بالاستسقاء ووَفْرَة الرِّزْق، ولأن الإله هو الذي يأتي بالخير الوفير ويعطي الرزق الكثير كان لا بدَّ لهم من أن يسبغوا عليه صفة تتناسب مع هذا المطلب، يرجونه بها أن ينقذهم من الضرر الذي يلحقهم في أيام الجَدْب والقَحْط؛ فبنو النَّمِر يتضرَّعون إلى إلههم - آخذين بالأسباب التي ترضيه، وترأف بهم - أن يُنْعِم عليهم بالغيث الغزير الذي يغطي الوديان؛ فيقولون⁽⁶⁸⁾:

لَبَّيْكَ يَا مُعْطِي الْأَمْرِ
جِنَّتْكَ فِي الْعَامِ الرَّمْرِ
لَبَّيْكَ عَنْ بَنِي النَّمْرِ
نَأْمُلُ غَيْثاً يَنْهَمِرُ

يَطْرُقُ بِالسَّيْلِ الْخَمْرِ

وتعتقد بَجِيلَة - كما في التلبية السابقة - أن طلب الاستسقاء ينبغي أن يقتصر "بالوسيلة" أي بتقديم عمل إلى الإله، ويكون تقديمه إليه بنية خيرة سليمة، ومع ذلك فهي لا ترى في هذه القرائن وحدها سبباً كافياً لحصول الاستجابة، إلا إذا طاف المتعبدون حول الكعبة رافعين أصواتهم بالتلبية، وكان عليهم أن يعانون من التعب في هذا الطواف، لأنه قد يكون شافعاً لهم عند الإله، فيكافئهم عليه ويستجيب لمطالبهم ويكرمهم بالغيث.

وقد تكون توسلات الجاهليين إلى إلههم وتوجَّههم إليه في إطار من الطقوس والاحتفالات الدينية، كالذي نجده في قبيلة كِنْدَة، حيث ينتشر أفراد هذه القبيلة على جبل ثَبِير⁽⁶⁹⁾ - بما يشبه احتفالاً جماهيرياً - منشدين ومرددين تلبيتهم التي ضمَّنوها تضرَّعهم للاستسقاء وطلب الغيث، بعد أن عمَّ جَمْد الشتاء وبَرَدَه شهر رَجَب؛ فقالوا⁽⁷⁰⁾:

لَبَّيْكَ مَا أُرْسَى ثَبِيرٌ وَحَدَه
وما أَقَامَ النَّحْرُ فَوْقَ جَدَه

وما سَقَى صَوْبُ الْعَمَامِ رَدَه
إِنَّ الَّتِي تَدْعُوكَ حَقًّا كِنْدَه

فِي رَجَبٍ وَقَدْ شَهِدْنَا جَمْدَه
لِلَّهِ نَرْجُو نَفْعَه وَرِفْدَه

ويروي الرواة أخباراً متعدِّدة تذكر أن عرب الجاهلية كانوا

وحَسْب، بل قد يتوسَّلون إليه من أجله هو، كما وجدنا ذلك في تلبية هَمْدان، حيث كان على إلههم أن يسمع دعاءهم إليه، كي يحفظه هذا الدعاء من سَطوة الملوك وسيطرتهم عليه، فيؤدِّون واجبهم نحوه من عبادة وتقديس، وقد جاء تكليمهم الصنم من اعتقادهم - والقبائل العربية الأخرى - أن الإله أو الآلهة تستمع لمطالبهم، ومن ثَمَّ تستجيب لهم، وتحقِّق لهم حاجاتهم⁽⁸⁷⁾، والدليل على ذلك الأخبار التي رواها الإخباريون عن الأصنام وبيوت العبادة، فذكروا أن المُنْطَبِق كان صنماً من نحاس، يُكَلِّمُون من جَوْفه كلاماً لم يُسَمِع بمثله⁽⁸⁸⁾، وأنه كان لِحِمِير بيت يقال له رِيام، وكانوا - فيما يذكرون - يُكَلِّمُون منه⁽⁸⁹⁾، وللعُرَى بيت كانوا يسمعون فيه الصوت⁽⁹⁰⁾. وغيرها من الأخبار التي تشير في جملتها إلى بساطة العقل العربي في معالجة أموره الدينية، معالجة لا يلمس منها إلا عواندها المادية التي تعود عليه بالنفع الحسي، والتي تكون موافقة لرغباته، وهو وإن كان لا يذهب في تفكيره إلى أبعد من هذا فإنه يجد نفسه ملزماً التعامل مع الآلهة في الإطار الذي يحقِّق له مطالبه، على نحو ما تقول هَمْدان⁽⁹¹⁾:

فاسْمَعْ دَعَاها تَقِي جميعَ المُلُوكِ

كَيْما تُؤدِّي حَجَّها ويُعْطُوكِ
وقد أنكر الجاحظ أن تكون أصنامهم على هذه الشاكلة، وإنما هو أمر كان يتولاه السَّنَّة والكُهَّان؛ فيقول⁽⁹²⁾: "وما أشك أنه قد كانت للسَّنَّة حِيلٌ وأطاف لمكان التكسُّب".
وكانوا ينظرون إلى إلههم نظرَهم إلى الحاكم أو القاضي، الذي يلجأون إليه لفضِّ المنازعات وإنهاء الخلافات القائمة بينهم، لجوئاً يدل على إصابته القضاء وفهمه⁽⁹³⁾ بقطع الحكم بين المدَّعي والمدَّعى عليه، ويجوز أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة - أعم من هذه النظرة - تقرب في معناها من المعنى الذي ذكره الله سبحانه وتعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه آتاه قَصلَ الخطاب في القضاء والمُحَاوَرَة والخُطْب⁽⁹⁴⁾، في قوله تعالى⁽⁹⁵⁾: «وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ»، وهم في تحقيق نظرَهم إلى إلههم فإنهم يتضرَّعون إليه بها على أنه "رَبُّ الأرباب"، الذي قد يُقَصِّد به كبير الآلهة أو الصنم أو الرب الأعلى الله تعالى⁽⁹⁶⁾، ولعل هذه العبارة مستوحاة من المفهوم من عقيدة إبراهيم عليه السلام في وصف الله عزَّ وجلَّ أنه "مَلِكُ الأُمَلَك"⁽⁹⁷⁾، التي تشبه قول مَنْ قال⁽⁹⁸⁾: "شاهانِشاه"، إذ نجد معاني التوحيد التي تشرَّبت بها نفوس العرب آنذاك يتردَّد صداها في تلبيات العرب، فلم تستطع الوثنية التي طرأت على دين القوم "أن تَنَحَّر التوحيد العَقْدِي من نفوس العرب قاطبة، أو أن توسَّع من نفوذها على حسابها"⁽⁹⁹⁾؛ يقول الأَرْدِيُّون⁽¹⁰⁰⁾:

لَبَّيْكَ رَبَّ الأربابِ! تَعْلَمُ فَصَلَ الْخِطَابِ

تجاوز على حقوق غيره، أصابته عقوبة في الدنيا كالأمراض والأوبئة والآفات، أو لحقته لعنة الآلهة، أو أنزلت به الهلاك والدمار⁽⁸¹⁾. وقد يكون من جملة العقوبات التي تنزلها الآلهة بالخارجين على أوامرها ما تَكَرَّرَتْه التلبيات من تسليط الحيات عليهم، ولذلك نجد الكُتُبِيِّين من شدة تَخَوُّفهم من غضبها، ولتقصيرهم عن شكرها، والاعتراف بفضلها بما أنعمت عليهم، يتوسَّلون إليها أن تبعد الأذى عنهم، وأن تجنِّبهم كل خطر يتهدِّدهم، من كل حية ترصد لهم بالشر؛ فيقولون⁽⁸²⁾:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
وَكُلُّنا لِنِعْمَةٍ جَوْدُ
لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
فَاكْفِنَا كُلَّ حَيَّةٍ رَصُودُ

ويأتي العفو عن الذنب - في تلبيات العرب - مقترناً بتوسُّل المتعبدين بالهداية إلى الطريق السليم؛ وذلك خوفاً من العقوبة التي تنزلها الآلهة بهم في الدنيا، إذ أن "عقوبات الدنيا أشدَّ تخويفاً للأعرابي، وأكثر وقعاً في نفسه من العقوبات المؤجلة في العالم الثاني"، والخوف من العقوبة في هذه الدنيا ساعد في ردِّع الأشرار عن غيهم، كما أن الإثابة في هذه الدنيا حملتهم على عمل الخير لتحقيق رضى الآلهة⁽⁸³⁾؛ فنقول هَوازِن في تلبيتها⁽⁸⁴⁾:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
وَاهْدِنَا لأَوْصَحَ المَنَازِ

ويروون أن من الأسباب التي تكفَّ الأذى عنهم، وتجعلهم أناساً صالحين التحلِّي بالأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة، وإنما يتحقق ذلك في نفوسهم من اعتقادهم أن الآلهة رضيت عنهم فاستجابت لمطالبهم، ولذلك لا غرابة أن نجدهم يتوسَّلون لآلهتهم بالأمور التي تجعلهم كذلك، توسُّلاً أرادوا فيه أن يهيئوا لهم جميع الظروف المتصلة بهم التي تُنَبِّت هذه الصفة فيهم، فمن هذا القبيل ما ورد في بعض النصوص الصَفَوِيَّة واللَّحْيَانِيَّة أن المتوسِّلِينَ توسَّلوا إلى إلههم أن يمنَّ عليهم بالسلامة والنعم، وأن يمنحهم الرحمة، وأن يبعد عنهم شر الأعداء وكيدهم، بل توسَّلوا إليه أن ينكَل بأعدائهم، وأن يُنْزِل نَفْثته وغضبه عليهم، والأهم من ذلك أنهم توسَّلوا إليه أن يقبَل منهم أعمالهم⁽⁸⁵⁾، لأن معنى استجابة إلههم لهم فيها أنهم أناس صالحون.

ومنه ما أثر عن بعضهم مما ورد في التلبيات الجاهلية أنهم كانوا يتوسَّلون إلى إلههم بأن يُقَرِّب إليهم الخير، وأن يكرِّهم الشر، بما تحمل هذه الكلمات من معاني تفيد الابتعاد عن التَّرف الذي يؤدي بهم إلى البَطَر، وتجنُّب الوقوع في الخطأ؛ يقول الهَمْدَانِيُّون⁽⁸⁶⁾:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
وَحَبِّبْ إلينا الْخَيْرَ
بَعْضُ إلينا الشَّرَّ
وَلَا تُبْطِرْنا فَنَأْشُرَ

وَلَا تَقْدَحْنا بَعْثَارَ
وَلَا يَقْتَصِر توسُّل المتعبدين لإلههم بكفَّ الأذى عنهم

لَمَّا كَلَّ مَثَابُ

ومن التوسلات الطريفة التي ذَكَرَتْهَا التلبيات، أنهم توسَّلوا لإلههم بما يملك من قوة ونفوذ أن يعيد إليهم مُلك بلادهم المَسْلُوب، فقد توسلتُ حَمِيرٌ ومن والها توسلاً من هذا القَبِيل بعد زوال مملكتهم، أو ربما بعد تَعَرُّضِهِم للاضطهاد عندما تهوَّد ذو نُواس وجماعة من العرب⁽¹⁰¹⁾؛ فقالوا⁽¹⁰²⁾:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
وَكُلُّنَا مَيْسِرَةٌ عَتِيدُ
أُرْدُدْ إلَيْنَا مُلْكَنَا وَالصَّيْدُ

وتوسَّلوا لإلههم بطلب الحماية والمنعة للبيت بأن يهلك الفاجر؛ ليبقى البيت طاهراً لا يناله إثم أو دنس، ويظل عامراً بأصوات الحجيج التي تؤمُّه تقرّباً إليه، فلا يأتي يوم عليه يكون فيه مهجوراً، فيصبح عُرضة للسقوط والهدم، ويصدق حُرْصُهُم على سلامة البيت في هذا النوع من التوسل ما ذهب إليه الرواة والإخباريون من تعليل من أن مكة إنما سُمِّيت كذلك لأنها تمكُّ من ظلم أي تُنْقِصُه⁽¹⁰³⁾، أو قولهم إنها سُمِّيت بَكَّةَ لأنها كانت تَبْكُ أعناق الجابرة إذا ألدوا فيها بظلم⁽¹⁰⁴⁾؛ يقول الفاكهي في موضع الشاهد التالي⁽¹⁰⁵⁾: "وكانوا فيما يزعمون: لا يدخلها مَلَكٌ فيُحدث فيها حَدَثاً إلَّا أصبح وعنقه مكسورة، ولا يُحدث مُحدثٌ إلَّا بسَّته من الحرم حتى تُخْرِجَه إلى الجِلِّ" وفي ذلك تقول عَكٌّ ومُدْجَج في تلبيتهما⁽¹⁰⁶⁾:

يَا مَكَّةُ، الْفَاجِرُ مُكِّي مَكَا

وَلَا تَمْكِي مُدْجَجاً وَعَكَا

فَيُتْرَكَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ دَكَا

جُنْنَا إِلَى رَبِّكَ لَا نَشْكَا

ويشير جَوَاد علي إلى مجموعة من النصوص الجاهلية التي تُخبر عن تلبية الآلهة توسلات المتعبدين لها، ووفائها لهم بما طلبوه منها، في الشفاء من المرض، ومنح السلامة في السفر وغيره، والعون على الفاجعة أو المكروه، ومنح الخلود أي طول العمر، والتنكيل بالأعداء، وغير ذلك من الموضوعات⁽¹⁰⁷⁾.

2. مناسك الحجّ وشعائره عند الجاهليين

ذكر الرواة والإخباريون العرب - في حديثهم عن انتشار عبادة الأصنام في العرب خارج مكة - مناسك حجّ أهل الجاهلية، ذَكَرُوا لم يكن مقصوداً لذاته، بقدر ما أرادوا الحديث فيه عن عقيدة العرب في الجاهلية، التي جمعوا فيها بين إيمانهم بعقيدة التوحيد - عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام - وبين إشراكهم الأصنام والأوثان في التقديس والعبادة مع الله سبحانه وتعالى. وتأتي التلبيات مصدراً آخر يطلعنا على مناسك حجّ العرب في العصر الجاهلي، وقد ورد ذِكْرُهَا فيها على أنها فرائض يجب على المتعبدين القيام بها إرضاء للآلهة، دون أن

تقفنا - هذه التلبيات - على جُملة الشعائر المطلوب منهم أدائها، وترتيب أولوياتها⁽¹⁰⁸⁾، وليس ذلك لقصور المنتسكين عن أن يضمّنوا تلبياتهم طقوس حجّهم ومناسكه، ولكن ربما لأن الرواة المسلمين أسقطوا من التلبيات ما يخالف عقيدتهم وفرائض حجّهم وكان مُعْرِقاً في الوثنية وتقديس الأصنام، وأبقوا ما يتسق مع دينهم وأقره الإسلام⁽¹⁰⁹⁾، ولذلك اضطربت التلبيات في التوفيق بين هذين المذهبين اضطراباً شديداً، وترتّب على ذلك أن اختلفت القبائل العربية في الشعائر⁽¹¹⁰⁾ التي أدّتها وتقرّبت بها للآلهة اختلافاً ظاهراً، ولكن هذا الاختلاف لا يعني أنها لم تتفق فيما بينها في بعضها اتفاقاً أفصحته عنه التلبيات أيضاً، وأكدته روايات الرواة في المظان القديمة، ولهذا الأمر دلالات ثلاث نذهب إليها، وهي أن مناسك حجّ العرب في العصر الجاهلي كانت واحدة وعامة⁽¹¹¹⁾، وفي ذلك قال ابن الكلبي⁽¹¹²⁾: وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان وغيرها، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، فإن "فيهم - على ذلك - بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحجّ والعمرة والوقوف على عَرَفَة ومُزْدَلِفَة وإهداء البُدن والإهلال بالحجّ والعمرة...". وأن التلبيات لا تعطي الصورة الحقيقية عن هذه المناسك، وأن ما نلاحظه فيها منها هو من عبث الرواة في العصور اللاحقة، وقد ردّته بعض كتب الأخبار⁽¹¹³⁾، فكان ما ذَكَرْتُهُ متأثراً بها، بل كان مبنياً عليها، ولعل أوفى مَنْ أشار إلى هذه المناسك ابن الكلبي في الخبر السابق، وقد زاد ابن حَبِيب عليه فذكر أنهم "كانوا يطوفون بالبيت أسبوعاً⁽¹¹⁴⁾، وَيَمْسَحُونَ⁽¹¹⁵⁾ الحَجَرَ الأسود، وَيَسْعُونَ بين الصفا والمروة⁽¹¹⁶⁾، وذكر غيره أنهم كانوا يُحْرِمُونَ ويقفون المواقف كلها⁽¹¹⁷⁾، وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون الجمار⁽¹¹⁸⁾. فهذه جملة مناسك حجّ العرب في العصر الجاهلي التي أجمع الرواة عليها، وأخلّوا في الحديث عنها عن الأعمال التي كان يقوم بها العرب في كل مناسك من هذه المناسك ما خلا بعضها؛ فأول عمل كانوا يقومون به إذا أرادوا الحجّ أو العمرة الإحرام⁽¹¹⁹⁾، ومع أن المظان القديمة لم تذكر هيئة إحرامهم إلا أنه يُفهم من خبر أورده الجاحظ أن أهل مكة، وهم قُرَيْشٌ وَمَنْ ولدوا، كانوا يرتدون لباساً خاصاً⁽¹²⁰⁾ أثناء تأديتهم لمناسك الحجّ؛ فيقول⁽¹²¹⁾: "وكانت سيما أهل الحَرَم إذا خرجوا إلى الجِلِّ في غير الأشهر الحُرْم، أن يتقلّدوا القلائد، ويعلقوا عليهم العلائق. وإذا أُوْدِمَ أحدهم الحجّ تزيّاً بزي الحاجّ..."، وإليه أشار أَوْسُ بن حَجَر فقال⁽¹²²⁾:

هَجَاؤُكَ إلَّا أَنَّ مَا كَانَ قَدْ مَضَى

عَلَيَّ كَأَنْوَابِ الْحَرَامِ الْمُهْنِمِ

كما لم تذكر المظان القديمة الأماكن التي كانوا يُحْرِمُونَ

جَنَّاتِكَ لِلنَّصَاحَةِ

تَعَبَّدُ وَرَقًا

لَمْ تَأْتِ لِلرَّقَاقَةِ

وتشعرنا هذه التلبية بالتسامي الديني، وبشدة الوجد الروحي الذي يعلو على الماديات جميعها، فالقصد من زيارة البيت هو التعبّد وإرضاء الله سبحانه وتعالى أو الآلهة بالتقرب إليه أو إليها روحياً ومعنوياً، والابتعاد عن ترف الحياة ومباهجها، وهي تدل من ناحية على أن أوقات العبادة والحج يجب أن تكون خالصة لله تعالى أو للآلهة مقصورة عليه سبحانه أو عليها، وأن أوقاتاً أخرى - خارج هذا الإطار الديني - يمكن للإنسان أن يمارس فيها نشاطه اليومي والحياتي في كسب المال والتجارة؛ فالتلبية إذن تفصل بين حياتين وبين وقتين. وكون هذه التلبية لا تصرّح بشرك⁽¹³³⁾، فإن ذلك قد يكون السبب الذي جعل بعض الصحابة يلبّون بها، فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان يلبّي بالشرطين الثاني والثالث منها⁽¹³⁴⁾، ورؤي عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يقولهما، ثم يخّر فيسجد لله⁽¹³⁵⁾، وذكرهما بعض المحدثين عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعين⁽¹³⁶⁾، و"لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل هذه التلبية عامة، وإنما كان يهلّ بها لنفسه دون سائر المسلمين لكي لا تتدرج بيننا فتكون سنة سبكا"⁽¹³⁷⁾.

كما يتضح الهدف من زيارة البيت في تلبية فضاءه، الذين يبذلون ما بوسعهم لإرضاء إلههم؛ فهم يقولون⁽¹³⁸⁾:
نُؤْمِ بِبَيْتِ الْمُسْتَجِيبِ الْمُعْبُودِ

أَنَّ إِلَهَهُ لِلْحَمِيدِ الْمُحْمَدُ
فإذا قدموا مكة طافوا بالبيت غرة، وهم الحلة من العرب كانت تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجّها غرة⁽¹³⁹⁾، الرجال بالنهار والنساء بالليل⁽¹⁴⁰⁾، أما الحُمس⁽¹⁴¹⁾ فكانوا يطوفون في ثيابهم⁽¹⁴²⁾؛ فمن جاء من غيرهم وضع ثيابه وطاف بالبيت - إذا قدم أول طوافه - في ثياب أحمس، إمّا عارية وإمّا إجارة وإمّا هبة وإمّا شرى. وكان الحُمس يُختسبون على الناس، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم يجد رجلاً أو امرأة - من يعيره من الحُمس ثوبه، كان بين أحد أمرين، إمّا أن يطوف بالبيت غرياناً، فإذا ختم طوافه يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمسّ فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك غرياناً. وإمّا أن يطوف في ثيابه التي جاء بها من الحِلّ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثيابه عنه حول البيت (جعلها لقي يطرحها بين إساف ونائلة)⁽¹⁴³⁾ فلا يمسه أحد ولا ينقع بها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح والمطر، وكان ذلك الثوب يسمى اللقي⁽¹⁴⁴⁾؛ فلذلك قال تبارك وتعالى⁽¹⁴⁵⁾: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ»، وفيه قال ورقة بن

منها، وأشار الشعر الجاهلي إلى بعض الأماكن التي يظنّ أنهم كانوا يحرمون منها، أو أنهم كانوا يمزون عليها وهم محرمون كما في قول زهير بن أبي سلمى يذكر حزن القنان، ومن أقام به من محلّ ومحرّم، في سياق وصفه الطعن⁽¹²³⁾:
جَعَلُ الْقَنَانِ عَنْ يَمِينٍ، وَحَزَنُهُ

وَمَنْ بِالْقَنَانِ، مَنْ مُجَلٍّ وَمُحْرَمٍ
ثم يهلّون بالحج، فقد ذكر الرواة أنه كان لكل قبيلة من القبائل العربية صنماً - أو أكثر - يصلّون له تقريباً إلى الله، فكانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده، ثم تلبّوا حتى تقدّموا مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة⁽¹²⁴⁾، وكانوا يوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده، يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»⁽¹²⁵⁾، «أي ما يوحدونني بمعرفة حقّي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي»⁽¹²⁶⁾؛ فكانت قریش إذا أهلت تقول⁽¹²⁷⁾:
لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ هُوَ لَكَ
لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ هُوَ لَكَ

وقد صورت التلبيات الجاهلية الحجاج وهم يؤمّون مكة والبيت صائحين مهلّين، تصويراً عكس الأجواء الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر، وكانت تسيطر على التفكير الديني للعربي الجاهلي؛ وذلك كما قالت جرهم في تلبيتها، وهم أول سكان البيت الحرام⁽¹²⁸⁾:
وَاللَّهِ لَوْ لَا أَنْتَ مَا حَجَّجْنَا
وَالْبَيْتَ وَلَا عَجَّجْنَا

وَلَا انْتَجَعْنَا فِي قُرَى وَصَحْنَا
وتكرر هذه الصورة في تلبية الأزد وقریش، وهم يؤمّون البيت حاجين إليه، طانفين به، غير أن اهتداءهم للحج إنما كان بوحى من الله؛ كما يقولون في تلبيتهم⁽¹²⁹⁾:
يَا رَبِّ لَوْ لَا أَنْتَ مَا سَعَيْنَا
وَلَا حَلَّلْنَا مَعَ قُرَيْشٍ أَبْنَا
الْبَيْتِ بَيْتُ اللَّهِ مَا حَبِينَا
وَاللَّهُ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا
نَحُجُّ هَذَا الْبَيْتَ مَا بَقِينَا
وَحَجَّتْ كُلُّ مَنْ عَاكَ وَالْأَشْعَرِيَّيْنَ الْبَيْتِ؛ فَقَالُوا مُنْشِدِينَ⁽¹³⁰⁾:
نَحُجُّ لِلرَّحْمَنِ بَيْتاً عَجَباً

وكانت بعض القبائل ترى أن زيارة البيت أمر واجب عليها، ليزل البيت أهلاً بأبنائها حياً بزياراتهم، فلا تتطرق إليه عوادي الزمن؛ تقول ثقيف⁽¹³¹⁾:
لَبَّيْكَ، كَفَى بَيْنَتَا بَنِيَّةٍ
لَيْسَ بِمَهْجُورٍ وَلَا بَلِيَّةٍ

وتكون زيارة البيت بدافع التقديس والعبادة والتوبة النصوح الخالصة، وليس للكسب والتجارة؛ كما يقول الأنصار في تلبيتهم⁽¹³²⁾:
[لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ]

لَبَّيْكَ حَجّاً حَقّاً

نُوقِلَ (146):

كَفَى حَزْناً كَرِّيَ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ

لَقَى، بَيْنَ أَيْدِي الطَائِفِينَ، حَرِيمٌ

وأشار إلى هذا المعنى ساعدة بن جُوَيْة الهُدَلِي يصف شخصاً يشتر العسل؛ فقال (147):

وَكَأَنَّهُ حِينَ اسْتَقَلَ بِرَيْدِهَا

مِنْ دُونِ وَقْبَتِهَا لَقَا يَنْدَبْدَبُ

وفي رواية تذكر أنه إن طاف وعليه ثيابه ضربَ وانْتَرَعَتْ منه (148)، وفي ذلك نزل قوله تعالى (149): ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك فَكُنَّ يَطْفُنَّ عُرَاةً، فمن لم تجد منهن مَنْ تعيرها مِنَ الحُمْسِ ثوبها نزعت عنها ثيابها وطافت عُرْيَانَةً؛ قال الأزرقي (150): "فجاءت امرأة يوماً وكان لها جمال وهيئة، فطلبت ثياباً عارية فلم تجد مَنْ يعيرها، فلم تجد بداً من أن تطوف عُرْيَانَةً فنزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت المسجد عُرْيَانَةً، فوضعت يديها على قَرْجِها وجعلت تقول: الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلَهُ "

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (151). وقد أشار خُفاف بن ثُدْبَةَ إلى طواف النساء عُرَاةً، فقال يصف صاحبته (152):

وَأَبْدَى شُهُورَ الْحَجِّ مِنْهَا مُحَاسَنًا

وَوَجْهًا مَتَى يَخْلُلُ لَهُ الطَّيْبُ يُشْرِقُ

وحكى الله تعالى في محكم كتابه ما كانوا يفعلون في طوافهم حول البيت، فقال (153): ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ فهذه هي الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم.

وكانوا يعلّلون طوافهم بالبيت عُرَاةً فيقولون (154): "لا نطوف بالبيت في ثياب قد أذنبنا فيها"، "نطوف كما ولدتنا أمهاتنا" (155)، يقصدون بذلك طَرْحَ الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب عنهم (156)، وكأنهم بطَرْحِهم ثيابهم عنهم طَرَحُوا ذُنُوبَهُمْ معها؛ فطوافهم على هذا النحو يشعروهم بتجردهم من الذنوب، وأنهم تحلّلوا منها، وألقوها في هذه الثياب، فطافوا عُرَاةً طاهرين، يدعون إلههم مخلصين له، وعليه فإن نَزَعَ الثياب عنهم يعني نَزَعَ الآثام، وأن الطهارة منها تعني طهارة الجسد بإبقائه عارياً، بحيث لا يلمسه شيء يَدْنُسُهُ، والتفسير الذي ذكره الإخباريون لطواف العُرْي، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران. واعتقاده أن طوافه بملابسه طواف غير صحيح، لأن ملابسه شاركته في آثامه، فهي ملوثة نجسة، ولذلك هاب من لبسها، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى

جديدة" (157).

وطواف العرب على هذا النحو عُرَاة هو "سنة جاهلية قديمة، ترجع طواف العُرْي إلى أمر سابق وشريعة سابقة" (158)، يدل على ذلك قوله تعالى: "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ... الآية، تقول تَمِيم في تلبيتها في هذا المعنى" (159):

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

لَبَّيْكَ عَنْ تَمِيمٍ قَدْ تَرَاهَا

قَدْ أَخْلَقَتْ أَثَوَابَهَا

وَأُثُوبَ مَنْ وَرَاءَهَا

وَأَخْلَصَتْ لِرَبِّهَا دَعَاءَهَا

ويضيف الإخباريون صِغَةً ثالثة كانوا يطوفون حول البيت، هم الطَّلَس (160)، والطلّس بين الحلة والخمس، يذكر ابن حبيب أنهم كانوا "يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الخمس. وكانوا لا يتعزّون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً ... وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون" (161).

وكانوا يطوفون بالبيت سَبْعاً (162)، ويقولون (163): "واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لثُرْجَى". وكانوا يتبركون بلمس الحجر الأسود، وقد وصف العلماء الأعمال التي كانوا يقومون بها في طوافهم بالبيت، والتي تعدّ في وصفهم لها على نحو من الترتيب أعمالاً واجبة لا يتم طوافهم إلّا بها؛ فذكروا أن كان العرب من غير الحُمْس إذا لم يجد مَنْ يعيره من الحُمْس ثوبه طاف عُرْيَاناً يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الرُّكْنَ الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سَبْعاً استلم الركن، ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمسّ فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عُرْيَاناً (164)؛ تقول مَدْحَج في تلبيتها مشيرة إلى بعض مناسك حجهم كالحجر الأسود وَرَجَبُ الْأَصَمِّ (165):

إِلَيْكَ يَا رَبَّ الْجَلَالِ وَالْحَرَمِ

وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالشَّهْرِ الْأَصَمِّ

وكان سائر العرب يقفون - أيام المَوْسِم - بعَرَفَةَ (166) ويفيضون منها، ما عدا قُرَيْشاً وَمَنْ دَانَ دِينَهَا - وكانوا يُسَمُّونَ الحُمْسَ - فإنهم تركوا الوقوف على عَرَفَةَ، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويُقَرُّون أنها من المشاعر والحجّ ودين إبراهيم، وإنما كانوا يقفون بالمُرْدَلِفَةِ (167) - وهي المشعر الحرام (168) - ويفيضون إذا أصبحوا منها (169)، يؤيد ذلك أن الطبري ذكر أن قريشاً كانت تقف على جبل بالمُرْدَلِفَةِ يسمّى قُرَح (170)، وأن الشاعر عَمْرُو بن قَمِيئة أشار إلى موقف ربيعة بن عامر (171) في "نُفْعَةٍ"، ويعني المشعر، كانت تقف به، ليس لهم غيره (172)؛ فيقول (173):

وَمَنْزِلَةَ بِالْحَجِّ أُخْرَى عَرَفْتُهَا

أنه كان يُفيض جماعةُ الناس من عَرَافَتِ وَيُفيضُ الحُمُسُ من جَمْعٍ (187)؛ قال أبو ذؤيب (188):

فَبَاتَ بِجَمْعٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى مِئَى

فَأَصْبَحَ رَادًّا يَبْتَغِي الْمَرْجَ بِالسَّحْلِ

ويروي رواية آخرون أن الحُمُس كانوا لا يخرجون من المُرْدَلَفَةِ ولا يقفون بعَرَافَات، فبني قُصَيَّ المَشْعَرُ فكان يُسْرَجُ عليه ليهتدي به أهل عَرَافَات إذا أتوا مُرْدَلَفَةَ، فأبقاه الله مَشْعَرًا، وأمر بالوقوف عنده؛ وقال العامري في وقوفهم في الجاهلية (189):

فَأَقْسِمُ بِالَّذِي حَجَّتْ فُرَيْشُ

وَمَوْقِفِ ذِي الْحَجِّجِ عَلَى إِلَالٍ

وإنما كانوا يقفون في الحَرَمِ، ولا يخرجون منه؛ يقولون: "إنما نحن أهلُ حَرَمِ الله، فلا نخرج من حَرَمِهِ" (190).

وعُرفَ عن عرب الجاهلية أنهم كانوا يسندون الإجازة (الإفاضة) إلى بعض رجالهم، فكانت - في بعض الروايات - في العَوَثِ بن مَرٍّ من مَضَرَ، فكان يلي الإجازة للناس بالحج من عَرَافَةَ، وولده من بعده (191)، في زمن جُرْهُم وخُزَاعَةَ (192)، وكان يقال لهم صُوفَةٌ، إذ كانت صُوفَةٌ تدفع بالناس من عَرَافَةَ، وتُحِيزُ بهم إذا نَفَرُوا من مِئَى، فإذا كان يوم النَفَرِ أَتَوْا لرمي الجِمارِ، ورجل من صُوفَةٍ يرمي للناس، لا يرمون حتى يرمي، وإنما يكون ذلك إذا مالت الشمس للغروب.

ويرمي الجاهليون الجَمَرَاتِ في المَجَمَرِ، وقد أشار إليه حُدَيْفَةُ بن أَسَسِ الهُدَلِيِّ في قوله (193):

لَأَذْرِكُهُمْ شُعْتَ النَّوَاصِي، كَأَنَّهُمْ

سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تُؤَافِي المَجَمَرَا

وتذكر مواضع الجِمار التي تُرمى بمِئَى بِ"الجَمَرَاتِ"، وكان الجاهليون يذبحون لأنصابهم على مَقَرَّةٍ منها؛ يقول أبو أسامة، معاوية بن زُهَيْر بن قَيْسٍ (194):

فَأَقْسِمُ بِالَّذِي قَدْ كَانَ رَبِّي

وَأَنْصَابٍ لَدَى الجَمَرَاتِ مُغَرِّ

فإذا فرغوا من رمي الجِمار وأردوا النَفَرِ من مِئَى، حبسوا الناس وقالوا: أجيزي صُوفَةَ، فلم يَجْزُ أحد من الناس حتى يمرُّوا، فإذا نَفَرَتْ صُوفَةٌ ومضت خَلِي سبيل الناس، فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقرضوا، ثم صارت الإفاضة في آل صَفْوَانَ من بني سَعْدِ بن زَيْدِ بن تَمِيمٍ، فكان صَفْوَانُ وبنوه من بعده يجيزون للناس بالحج من عَرَافَةَ، وفي ذلك يقول أَوْسُ بن تَمِيمِ بن مَعْرَاءِ السَّعْدِيِّ (195):

لَا يَبْرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا مُعَرَّفَهُمْ

حَتَّى يُقَالَ أَجَبُوا آلَ صَفْوَانَ

ويذكر الأزرقي أن الإفاضة صارت بعد صُوفَةَ في عَدْوَانَ

لَهَا نَفْعَةٌ لَا يُسْتَطَاعُ بُرُوحُهَا

وقيل (174): كانت الحُمُس تنزل أطراف الحَرَمِ من نَمِرَةٍ بمَفْضَى المَأْزَمِينَ يوم عَرَافَةَ، يقولون (175): لَا تُفِيضُ إِلَّا مِنَ الحَرَمِ. وروي كذلك أنهم كانوا يقولون (176): "نحن أهل الحَرَمِ، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحُرْمَةِ، ولا نعظم غيرها كما نُعَظِّمُهَا نحن الحُمُسُ".

ويكون وقوف العرب على عَرَافَات بالدعاء والتضرع لمعبوداتهم، فإذا انقضى يوم الوقوف وأقبل الصباح تقربوا إليها بإهداء البَدَنِ؛ تقول كِنَانَةُ في تلبيتها (177):

لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ

يَوْمَ الدُّعَاءِ وَالْوُقُوفِ

وَذِي صَبَاحِ الدَّمَاءِ

مِنْ شَجَّهَا وَالتَّرِيفِ

ويبدو أن ارتباط الوقوف على عَرَافَةَ بتقديم القرابين للآلهة له قُدسية معينة في نفوس الجاهليين؛ يقول جَوَادُ عَلِي (178): "وعَرَافَةُ أو عَرَافَات موضع على مسافة غير بعيدة من مكة. لا بدَّ وأن يكون من المواضع التي كان يقدها أهل الجاهلية، وأن يكون له ارتباط بصنم من الأصنام، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحجّ وشعائره عند الجاهليين".

وكان الجاهليون من غير فُرَيْشٍ يُفِيضُونَ من عَرَافَةَ إِلَى المُرْدَلَفَةِ إذا طَفَلَتْ الشمس للغروب (179)، وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمامات الرجال في وجوههم. ويفيض الحُمُسُ من أنصاب الحَرَمِ من نَمِرَةٍ، ثم يلتقون بمُرْدَلَفَةِ جميعاً فيبيتون فيها، حتى إذا كانت في الغَلَسِ، وقفت الحُلَّةُ والحُمُسُ على قُرْحٍ، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس، وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمامات الرجال في وجوههم دفعوا من مُرْدَلَفَةِ إِلَى مِئَى، وهم يرددون:

كَيْمَا نُغَيِّرُ

أَشْرُقَ تَبِيرُ

وقد وردت الإشارة إلى جبل تَبِيرٍ بهذا المعنى في تلبية جُرْهُم؛ فهم يقولون (181):

أَشْرُقَ كَيْمَا نَنْتَثِي فِي الدَّهْنَا

لَكِي نَحْجَّ قَابِلًا وَنَعْنَا

فأنزل الله في الحُمُسِ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (182) يعني من عَرَافَةَ، والناس الذين كانوا يدفعون منها أهل اليمَنَ وربيعة وتَمِيمٍ (183). فإذا كانوا في المُرْدَلَفَةِ وجدوا بها ناراً كان قد أوقدها قُصَيُّ بن كِلَابٍ حتى يراها من دُفْعٍ من عَرَافَةَ (184).

وتقترب رواية الأزرقي في مدلولها من رواية الطبري في إفاضة الحُمُسِ من الحَرَمِ، فهو يذكر أن فُرَيْشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم يُفِيضُونَ من المَعْمَسِ (185)، ويقولون: إنما نحن أهل الله، فلا نخرج من حَرَمِهِ (186). وفي رواية للبخاري تذكر

بن عمرو في زمن قُرَيْش⁽¹⁹⁶⁾، فكانوا يفيضون بالناس من المُرْدَلِفَةِ⁽¹⁹⁷⁾، وفي ذلك يقول ذو الإصْبَعِ العَدَوَانِي⁽¹⁹⁸⁾:

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوٍّ
مِنْهُمْ مَنْ يُجِيرُ النَّاسَ
نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
سَ بِالسَّيِّئَةِ وَالْفَرْصِ

وأثر عن عرب الجاهلية أنهم كانوا يطوفون بالصفا والمروة - إِلَّا مَنْ كَانَ يُهْلَ لِمَنَاةَ وَهُمْ الْأَنْصَارُ⁽¹⁹⁹⁾ - وإنما كان ذلك للصنمين اللذين كانا عليهما، وهما: إساف ونائلة تعظيماً منهما، وكان طوافهم بهما قَدْرَ طوافهم بالبيت سبعة أشواط، تقوم بذلك قُرَيْشٌ، أما غيرهم من العرب فلا يطوفون بهما⁽²⁰⁰⁾، وذلك إذا انصرفوا من مُرْدَلِفَةِ⁽²⁰¹⁾. وكان الجاهليون يَمَسِّحُونَهُمَا⁽²⁰²⁾، يبدؤون بإساف يطوفون حوله ويلمسونه كل شوط من الطواف، ثم ينتهون بنائلة⁽²⁰³⁾، ويلبسون لهما؛ يقول الأَزْدِيُّونَ⁽²⁰⁴⁾:

يَا رَبَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا سَعَيْنَا

بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَتَيْنِ فِينَا

وقال أبو طالب يذكر السعي بين الصفا والمروة⁽²⁰⁵⁾:

وَأَشْوَاطٍ بَيْنَ الْمَرْوَتَيْنِ إِلَى الصَّافَا

وما فيهما مِنْ صُورَةٍ وَتَخَايَلٍ

وَالسَّعْيِ بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ شَعَارٍ قَدِيمٍ مِنْ عَهْدِ هَاجِرٍ أَمْ

إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ⁽²⁰⁶⁾.

ويروي الرواة أخباراً تتصل بشعائر خاصة بأقوام دون سائر العرب، فذكروا أن الأنصار⁽²⁰⁷⁾ كانوا قبل أن يسلموا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّلِ - من قُدَيْدٍ - فكان من أهلٍ يَتَحَرَّجُ أن يطوف بالصفا والمروة⁽²⁰⁸⁾، وفي رواية وكان ذلك سنة في آبائهم⁽²⁰⁹⁾. وذكر بعضهم أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تعظيماً لِمَنَاةَ⁽²¹⁰⁾؛ فكانوا يحجونها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عَرَافَاتٍ وفرغوا من منى أتوا مَنَاةَ فَأَهْلَوْا لَهَا، فمن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة⁽²¹¹⁾.

وكان العرب يقومون ببعض الواجبات المفروضة عليهم، وهم يؤدون شعائر حَجَّهم وطُقُوسَ دينهم؛ لاعتقادهم أنها تقرهم إلى معبوداتهم، طمعاً في رضاها عنهم؛ فمن هذه الواجبات: الصلاة، وما يعقب الصلاة التصدُّق بالأموال؛ كما تصف ذلك الأَزْدُ في تلبيتها⁽²¹²⁾:

يَا رَبَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا سَعَيْنَا

.....

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

ويبدو من النظر في الشُّطْرَ الأخير من هذه التلبية، وتتبع الأخبار التي رُوِيَتْ عنه في الموارد الإسلامية، أن مثل هذه الأناشيد كانت شائعة عند العرب، وأنهم كانوا يرددونها بينهم، واستمرت فيهم بعد ظهور الإسلام؛ بدليل أنه ورد في رجز

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ⁽²¹³⁾، وَرُوي عن النبي ﷺ أنه كان يدعو برجز ابن رَوَاحَةَ يوم الأحزاب⁽²¹⁴⁾، وهذا يدل على أنه ﷺ كان يقول على عادة العرب في بعض المواقف، وقد ألمح ابن حَجَرٍ إلى ذلك فأشار إلى "جواز تمثُّل النبي ﷺ بشعر غيره"⁽²¹⁵⁾، فكان يقول⁽²¹⁶⁾:

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلُنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَنَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنَّ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَعَا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وتقديم الصدقة ليس بالأمر الغريب على العرب، فهي من الأمور التي كان يتحنَّثُ (يتعبد) بها بعض الجاهليين⁽²¹⁷⁾، وأثر عن بعض رجال مكة أنهم كانوا يتصدقون على الفقراء والمحتاجين⁽²¹⁸⁾، وما اصطناع قريش أمر الرِّفَادَةِ⁽²¹⁹⁾ إِلَّا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الصدقة، إذ كانوا يجمعون الطعام كل عام لأهل المَوْسِمِ⁽²²⁰⁾، وجعلوا الإيلاف⁽²²¹⁾ سبباً لمساعدة الفقراء وإنعاشهم⁽²²²⁾. وقد تقتزن الصدقة عند بعض القبائل بواجب آخر كتقديم الأضاحي للآلهة؛ كما تذكر جُرُهم في تلبيتها⁽²²³⁾:

وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا حَجَّجْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا تَجَجْنَا

وقد تودى الأضاحي وحدها كما في تلبية كِنَانَةَ⁽²²⁴⁾، وتلبية بني أسد؛ فيقولون⁽²²⁵⁾:

لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ حَتَّى تَجْبَهُدَ
لِرَبِّهَا وَتَعْتَبِدَ
لِحَجِّهِ لَهَا الدَّمَاءُ، وَحَجُّهَا حَتَّى تَرُدَّ

ونلاحظ هذا الواجب في تلبية جُرُهم السابقة، في موضع آخر منها؛ فيقولون⁽²²⁶⁾:

نَحْنُ بَنُو قَحْطَانَ حَيْثُ كُنَّا

نَحْزُرُ عِنْدَ الْمَشْعَرَيْنِ⁽²²⁷⁾ الْبُدْنَا

ويبدو أنهم كانوا يُعْظَمُونَ البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم وأنصابهم الموضوعة فيه بالذبايح، يدلك على ذلك قول المسلمين للرسول ﷺ⁽²²⁸⁾: "يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يُعْظَمُونَ البيت بالدم، فنحن أحقُّ أن نعظمه" ويظهر في قول النَّابِغَةِ الذَّبْيَانِيَّ في اعتذارياته⁽²²⁹⁾:

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَحْتُ كَعْبَتَهُ

وما هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ
وَكَانَ مِنْ عَادَاتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا ذَبَحُوا لِلْأَصْنَامِ لَطَّخُوا بِدَمَاءِ

الهدايا، يلتمسون بذلك الزيادة في أموالهم⁽²³⁰⁾.

ومن الواجبات المفروضة عليهم أيضاً: تقديم الهدايا التي تقرهم إلى معبودهم⁽²³¹⁾، والتي كانوا يحملونها فوق الإبل، تقديماً ذهبوا إلى التعميم فيه كل حسب طاقته وقدرته⁽²³²⁾، والمصطلح الذي ذكره الإخباريون للهدايا يكون في النذور والهبات أو المَنَحِ، التي يرميها المتعبد في مواضع معروفة في

المعابد، تكون أمام الأصنام في الغالب⁽²³³⁾؛ كما تقول مذبح في تليبيتها⁽²³⁴⁾:

إليك يا رَبَّ الْجَلَالِ وَالْحَرَمِ
نَقُطُّعُ مِنْ بَيْنِ جِبَالٍ وَسَلَمَ

والعِيسُ يَحْمِلُنْ جَلالاً وَكَرَمَ

ويلحظ في أنواع الواجبات المفروضة على العربي الجاهلي من تقديم الهدايا والقرابين، والقيام بالشعائر العملية للدين، كالحجّ وزيارة الآلهة أنها تقوم على فهم الإدراك الحسي لها، إدراكاً جعلها في المقام الأول في ديانتها، "لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتذكرها الأبصار [و] تُفْنَعُ الْمُتَدَبِّينَ النَّفْيَ المتقرب بها إلى آلهته بأنه قد قدّم شيئاً ثميناً لها، وأنها لذلك سترضى عنه حتماً ... كلما تذكرها وقام بأداء هذه الواجبات المفروضة أو المستحبة لها"⁽²³⁵⁾.

ومما يتصل بالحديث عن مناسك الحجّ وشعائره عند عرب الجاهلية تلك الإشارات التي وردت في تليبات العرب، وتتعلق بالبيت، وبالمتعبدین أنفسهم، ويزواحلهم بحيث كان ورودها فيها وروداً لازماً تستدعيه طبيعة المعاني في هذه الصيغ التليبية، والغاية منها، الأمر الذي يجعل الحديث عنها مكماً لجوانب هذا الموضوع؛ فمن هذه الإشارات ما ذكر في تليبية عَكَ والأشعريين عن صفة البيت أنه مستتر مغطى، مما يجسد معاني التعظيم والإجلال التي كانت تلقى على البيت قبل دخولهم الحرم⁽²³⁶⁾؛ فهم يقولون⁽²³⁷⁾:

نَحْجُ لِلرَّحْمَنِ بَيْتاً عَجَباً مُسْتَتِراً، مُضَبَّياً، مُحَجَّباً
ولأن البيت مكان للعبادة، فلا بد أن يقام على مكان طاهر، وأن تكون تربته صالحة؛ كما تقول ثَقِيف في تليبيتها⁽²³⁸⁾:
لَبَيْكَ، كَفَى بَبَيْتِنَا بَنِيَّةً لَيْسَ بِمَهْجُورٍ وَلَا بَلِيَّةً
لَكِنَّهُ مِنْ ثُرَيَّةٍ رَكِيَّةً

كذلك كان من هذه الإشارات ما قيل في وصف المتعبدین الحاجين البيت، القائمين على خدمته وسدائته، إنهم من خيرة الناس وصالحهم؛ وذلك لأن السدانة تعدّ من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين، وهي منزلة شرف تكسب صاحبها جاهاً ومالاً، إذ يكون مفتاح بيت الصنم أو الأصنام في العادة بيد السدان، وتكون وراثية في الأغلب⁽²³⁹⁾، تقول ثَقِيف في موضع آخر من التليبية السابقة⁽²⁴⁰⁾:

أَرْبَابُهُ مِنْ صَالِحِي الْبَرِيَّةِ

أما بنو أسد فقد وصفت تليبيتهم المتعبدین منهم بأنهم من خيرة أبنائها: وفاءً وعطاءً، وصبراً وسخاءً، وعدداً ومالاً، ويبدو أن هذه الصفات مطلوبة في المتسكن للصنم، فالوفاء للتعبير عن الوفاء بالنذور، والعطاء والسخاء والمال لتقديم القرابين والهدايا على أنواعها⁽²⁴¹⁾، والعدد للدلالة على الكثرة والمبالغة

في عدد المتقربين إلى الصنم، والصبر لبيان جلدتهم وقدرتهم على تحمل مشاق السفر، فالآلهة لا ترضى عنهم إلا إذا أوفوا بنذورهم ونقدوها، وقدّموا لها الهدايا والقرابين، وجادوا عليها بالأموال من أكبر عدد منهم⁽²⁴²⁾، وتحملوا العنت في سبيل الوصول إليها؛ فيقولون⁽²⁴³⁾:

رَبِّناً أَقْبَلْتُ بَنُو أُسَدَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالنُّوَالِ وَالْجَلَدِ
فِينَا النَّدَى الذُّرِّيُّ وَالْعَدَدُ ذُو الْمَالِ وَالْبُنُونُ فِينَا وَالْوَلَدُ
وصفة الجلد التي ذُكرت في هذه التليبية، ووُصِفَ بها المتعبدون من بني أسد تتسق مع المعنى الذي يستشف من تليبية عَسَان في وصف المُرتحلين إلى الصنم بأنهم من المشاة والفرسان⁽²⁴⁴⁾.

وقد وصفت التليبات المتعبدین خارج إطار الحجّ إلى البيت الحرام بصفات أخرى، وتميز من بينها تليبية جَمِير بأن الملبين بها هم طبقة رفيعة من الملوك، تتصف بنفاذ القول والأمر، وزجاجة العقل، والحلم، ووصل الرّحم، والابتعاد عن الذنوب والآثام، وهذه صفات علوية لا يتحلّى بها البسطاء أو الضعفاء من الناس، وهي عكس ما صادفناه في التليبات الأخرى، حيث تتجلى فيها معاني التوسّل والتضرع والتصاغر للصنم، وأما ما يتضح في الشطرين الأخيرين منها من معاني التذلّل، فعلى الأرجح أنهما أضيفا إليها بعد دخول جَمِير في الإسلام، إذ يبدو أن هذه التليبية تأثرت بالجو السائد آنذاك الذي يبشّر بقدم النبي (ﷺ)، فجاءت بعض تعابيرها مستوحاة من تلك البيئة، وتسرب الشعور الإسلامي إلى هذه التليبية يدل على اتجاه جديد في عقيدة القوم، ظهر في هذه الألفاظ الإسلامية التي أضيفت إليها، مع الحفاظ على مقدماتها التوحيدية، وحذف الأجزاء الوثنية منها لتنتمى مع الدين الجديد، ربّما لأن الراوي الذي وقعت في يديه هذه التليبية تحرّج - كما يبدو - أن يروي هذه الأجزاء لتعارضها مع عقيدة الإسلام⁽²⁴⁵⁾؛ تقول جَمِير⁽²⁴⁶⁾:

لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ عَنِ الْمُلُوكِ الْأَقْوَالِ
ذُوِي الثُّهَى وَالْأَخْلَامِ وَالْوَصْلِينَ الْأَرْحَامِ
لَا يَقْرَبُونَ الْآثَامَ تَنْزَهاً وَإِسْلَامَ
دَلُّوا لِرَبِّ كَرَامَ

وتتكرّر صفة التعقّل والحلم في المتعبدین في تليبية جُذام؛ فيقولون⁽²⁴⁷⁾:

لَبَيْكَ عَنْ جُذَامِ ذِي الثُّهَى وَالْأَخْلَامِ

كذلك من الصفات المتميزة التي يتصف بها المتعبدون ما نجده في تليبية فُرَيْش من زهوم بعزتهم وعلو مكانتهم على العرب بتلك الحماية التي اكتسبها المتسكنون، فهم يذكرون أنهم لم يدينوا للملوك، ولم يخضعوا لهم، ولم يُصَبِّهم في الجاهلية سبأ، وأن قوتهم وشدتهم جعلت منهم شجعاناً حتى هابتهم

وتبرز التلبيات صوراً من الطقوس الجماعية التي كان العرب يؤدونها في مشاهد عامة، كانت تقام في مناسبات موسمية، وبالأخص عند التوجه إلى مكة في موسم كمؤسم الحج، والطواف بالأصنام المنصوبة حول الحرم، حيث كان يرافقها الإنشاد والترديد والتغيم لهذه التلبيات. وتشير التلبيات في جملتها إلى أن العرب كانوا إذا قدموا مكة يهلّون بالتلبية في صورة جماعات، يرفعون أصواتهم بها قبيلة قبيلة، ويتم هذا بشكل منتظم، وكل قبيلة وفق دورها ودور إلهها، فتكون مكة يومئذ مسرحاً موسمياً عظيماً، والناسكون ممثلون لهذه الطقوس الوثنية⁽²⁵⁸⁾، وتشير من ناحية أخرى إلى أنهم كانوا يتحملون مشاق الرحلة والسفر المضني، وحرّ الهجرة ويرد الشتاء، ويتخطون الصعاب والأهوال وهم يقطعون المسافات الطويلة والمساحات الشاسعة، هابطين من فوق الجبال إلى السهول والهضاب، وإلى الشعاب وبطون الوديان، حتى يصلوا إلى الحرم⁽²⁵⁹⁾، فترتفع أصواتهم إلى عنان السماء، ويشد حينئذ الصخب والضجيج بسبب هذه التلبية⁽²⁶⁰⁾، ولم يذكر الرواة والإخباريون - ولم تفصح التلبيات عن - تفصيلات أكثر لتلك المشاهد الجماهيرية العامة، سوى ما ذكره ابن حبيب عن تلبية عكّ أنهم كانوا "إذا بلغوا مكة، يبعثون غلامين أسودين أمامهم يسيران على جمل، مملوكين قد جردا، فهما غريبان. فلا يزيدان على أن يقولوا:

نَحْنُ غُرَابَا عَكّ

وإذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عكّ:

عَكّ إِلَيْكَ عَانِيَّةُ عِبَادُكَ الْيَمَانِيَّةُ
كَيْمَا نَحْجُ النَّانِيَّةُ على الشّدادِ النَّانِيَّةُ⁽²⁶¹⁾

ولا تفسير لاختيار عكّ غلامين أسودين، عبدين، مُجَرَّدِينَ من ثيابهما - في غياب النصوص الصريحة - إلا مبالغة منها في إظهار التُّسك، مع ما يرافقه من مشاعر الضعف والهوان، وصور من التصاغر والخنوع أمام معبودهم، الذي يُعتقد - والحالة هذه - أنهم يتساوون بين يديه على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم⁽²⁶²⁾، وقد مرّت أمثلة كثيرة من هذه التلبيات أظهر الناسكون فيها ألواناً من التذلّل والضعف لمعبودهم الذي ينسكون له.

ويذكر قُطْرُب تلبية أخرى من هذا القبيل لعكّ ومُنْجَج يؤديانها في مثل هذا المشهد الاحتفالي الذي يعلن على الملأ في المناسبات الموسمية؛ فيقول⁽²⁶³⁾: "يخرج رجلٌ من مُنْجَج ورجل من عكّ فيقولان:

يا مَكَّةُ الفاجرِ مَكِّي مَكَا ولا تَمْكِي مُنْجَجاً وَعَكَا
فَيُنْزَكُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ دَكَا جُنْنا إلى رِيكٍ لا نَشْكَا

وسبق أن التقينا بصيغة دينية لبعض القبائل العربية تؤديها

رماح الأعداء، وحُرِّمَتْ دماؤهم عليها، فلا يتعرض لهم أحد بالأذى والقتل؛ فيقولون⁽²⁴⁸⁾:

لَنِيِّكَ، إِنَّنَا لَقَاحُ حَرَمْتَنَا على أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ
يَحْسِدُنَا النَّاسُ على النَّجَاحِ

ومما يؤكد هذه الصفة ويؤيدها فيهم ما ذكره الإخباريون عن عُثْمَان بن الحُوَيْرِث⁽²⁴⁹⁾ وكان قدم على قَيْصَرَ، فَتَوَجَّهَ وولاه أمر مكة، فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا لِمَلِك، وصاح الأسود بن أسد بن عَبْدِ الْعُزَّى: أَلَا إِنْ مَكَّةَ حَيَّ لَقَاحٌ لَا تَدِين لِمَلِك، فلم يتم له مراده⁽²⁵⁰⁾.

ولم تقتصر التلبيات على وصف المتعبدين بالصفات الحميدة فقط، وإنما ذكرت بعض الصفات المشينة التي يتصفون بها، فكئدة - كما مرّ⁽²⁵¹⁾ - تصف أبناءها بأنهم يكفرون بالنعم ويجحدونها، وهو اعتراف منها يشعروا بنقصيرهم عن شكر الآلهة التي أنعمت عليهم واستجابت لهم فَعَمِطُوهَا⁽²⁵²⁾ فضلها، ورغم شعورهم بقبح سجايهاهم، فإنهم يطمعون منها أن تقيهم كل خطر يترصد بهم.

كما احتوت التلبيات وصفاً لإبلهم التي تحملهم إلى الحج، فهي تشبه في ضميرها قسيّاً تؤخذ من شجر النَّشْم؛ تقول مَدْحَج⁽²⁵³⁾:

إِلَيْكَ يَا رَبَّ الْجَلَالِ وَالْحَرَمِ

على قِلاصٍ كَحَنِيَّاتِ النَّشْمِ

ويتردد هذا المعنى في تلبية جرهم، فأبلهم خَمِيصة البطن، بيضاء خالصة اللون، تجتاز السهول والهضاب؛ فيقولون⁽²⁵⁴⁾:

وَاللهُ لَوْلَا أَنْتَ مَا حَجَّجْنَا

على قِلاصٍ مُرْهَفَاتٍ هُجْنَا

يَقْطَعْنَ سَهْلاً تَارَةً وَحَزْناً

ويحدث الضمور في الإبل من جزاء الرحلة الطويلة والسفر المضني إلى الصنم، فأبل هَمْدَان - رغم ضميرها - صلبة قوية تنقاد لأوامرهم؛ فيقولون⁽²⁵⁵⁾:

لَنِيِّكَ رَبَّ هَمْدَانٍ

جَنَّاكَ نَبْغِي الْإِحْسَانَ بِكُلِّ حَرْفٍ مَدْعَانُ
وكذلك كانت الإبل التي تحمل عكاً إبلًا قوية أيضاً، نجبية تمضي بهم مسرعة إلى الكعبة اليمانية؛ فيقولون⁽²⁵⁶⁾:

عَكّ إِلَيْكَ عَانِيَّةُ

كَيْمَا نَحْجُ النَّانِيَّةُ على الشّدادِ النَّانِيَّةُ

وكانت الرواحل التي تحمل قبيلة هُدَيْل إلى إلههم إبلًا وخَيْلاً؛ فيقولون⁽²⁵⁷⁾:

لَنِيِّكَ عَنْ هُدَيْلٍ أَدْلَجَتْ بَلِيلُ تَعْدُو بِهَا رَكَائِبُ إِبِلٍ وَخَيْلُ

3. طقوس احتفالية

وزن "فاعل"، للدلالة على المانح الذي يمنحهم ويعطيهم وينكرم عليهم، وإما أن يكونوا قد أبرزوا مكنون ذواتهم بما تبقى فيهم من عقيدة إبراهيم عليه السلام في صفة الله تعالى، فاشنقوا من "مجيد" "ماجداً" للدلالة التي أشرنا إليها. كما يلحظ إحساسهم المادي بالذات الإلهية في تصوّر جماله، وربما كان لتشكيلهم الأصنام في صور متعدّدة لا يخلو بعضها من جمال أثر في هذا التصرّو⁽²⁷⁵⁾؛ تقول هُذَيْل⁽²⁷⁶⁾:

لَبَّيْكَ عَنْ هُذَيْلٍ أَدْلَجْتُ بِلَيْلٍ تَعْدُو بِهَا رِكَائِبُ إِبِلٍ وَخَيْلٍ
تَهْوِي إِلَى رَبِّ كَرِيمٍ مَاجِدٍ جَمِيلٍ

وفي تصوّر جمال الصنم "جِهار" تشير تلبية هَوازَن في دعائها إلى "التمتع والتأمل بمنظره على أنه كان صنماً حسن الهيئة، فهو إله للجمال عندهم"⁽²⁷⁷⁾؛ إذ يبدو أن في دلالة "جِهار" في أصلها اللغوي ما يؤيد ذلك، فـ"جِهار" مصدر الفعل "جَهَرَ"، و"الجَهْرُ" العلانية، وتشير "جَهِير" في المادة نفسها إلى "حُسْنُ الْمُنْظَر" الذي يكون الحُكْمُ عليه من النظر إلى هيئته، وهذا ما تحتمله المادة اللغوية "جَهْرَة" التي تعني غير المستتر أو المحتجب عنا⁽²⁷⁸⁾، وقد حكى الله جلّ جلاله عقيدتهم هذه على لسان يهود بني إسرائيل في قوله تعالى⁽²⁷⁹⁾: «أَرَأَيْتَ إِنْ أَلَّاهُ جَهْرَةً؟» وأما هَوازَن فتقول⁽²⁸⁰⁾:

لَبَّيْكَ، اجْعَلْ دُنُوبَنَا جُبَارَ وَمُتَعْنَا وَمِلْنَا بِجِهَارَ
وتشير تلبية حِمَيْر⁽²⁸¹⁾ إلى طبقة اجتماعية عالية، تختلف في مزايها عما عهدناه في التلبّيات الأخرى، إذ كان الملّون بها أبناء القبائل، هذه الطبقة يمثلها الملوك. وأول ما يلحظ على الأسطار الخمسة الأولى من التلبية أن معاني التملّق والضرعة للآلهة ليست موجودة فيها أبداً، على اعتبار أن الآلهة أعظم شيء موجود عندهم، وأن الدعاء إليها ممن هو أدنى منها يجب أن يكون في هذا الإطار، ولكن التلبية تعكس غير ذلك، وهذا أمر له خطره في الدراسات الدينية يدعو إلى مزيد من البحث عن هذا النوع من التلبّيات، ومقارنة الصيغ التلّوبية فيها بمثيلاتها التي وردت في تلبّيات أبناء القبائل.

والحق أن ما عُرِفَ عن الملوك وتميزوا به من سَطْوَة في الحُكْم - جعلتهم يسيطرون على الناس، فيطيعونهم ويسمعون لأوامرهم وينفذونها - انعكس على نظام حياتهم، ولم تسلم منه حياتهم الدينية، وهذا أمر تؤكده تلبية هَمْدَان؛ حيث تقول⁽²⁸²⁾:

هَمْدَانُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ تَدْعُوكُ

فاسمَعْ دَعَاءَهَا تَقِي جَمِيعَ الْمُلُوكِ
والخطاب في التلبية موجّه إلى الصنم، وفيه إشارة إلى الأمر بالسمع، ومن ثمّ تنفيذ أوامرهم؛ لأن طاعتهم قد تكون سبباً في قدومهم في الحجّ إليه؛ وهذا ما عبّرت عنه هَمْدَان بعد

في موسم الحجّ إلى مكة، وهم مكوث في المزدلفة منتظرين شروق الشمس يغطي قمة جبل ثَبِير، فإذا صارت أشعة الشمس على رؤوسهم كأنها عائم الرجال في وجوههم، دُفِعُوا من المزدلفة إلى منى، مغيرين على عتائهم، وهم يرددون بصوت واحد:

أَشْرَقَ ثَبِيرٌ كَيْمَا نُغِيرُ⁽²⁶⁴⁾

4. موضوعات أخرى

وقد أشارت بعض التلبّيات إشارة موجزة إلى موضوعات أخرى فرعية تبين علاقة الجاهليين باللهم أنها علاقة فوقية، ونظرتهم إليه نظرة حسّية مادية، الأمر الذي فرض عليّ جمعها في حديث واحد؛ فمن ذلك أن تلبية قُرَيْش أشارت في الشطر الأخير منها، وهو قولها⁽²⁶⁵⁾:

أَبُو بَنَاتٍ فِي فَدَكُ

إلى علاقة البنات بإساف ونائلة، وظاهرة الجنس في هذه العبادة⁽²⁶⁶⁾، وإساف ونائلة - كما يذكر جمهرة الرواة - صنمان كانا لقُرَيْش من قديم الزمان على الصفا والمروة، وزعم بعضهم أن إسافاً ونائلة رجل وامرأة كانا من جُرهم، رُوِيَتْ عنهما قصة ذات مغزى أسطوري ردّتها كثير من الكتب⁽²⁶⁷⁾، ويفهم منها - ومن التلبية - أن إسافاً كان إلهاً ذكراً، وأن نائلة إلهة أنثى، وأن ذُرْيَة الإلهة لدى الوثنيين هي الإناث، وكُنْ في فَدَكُ، وهي قرية بناحية الحجاز فيها عَيْنٌ وَخَلٌ⁽²⁶⁸⁾، لذلك لا يُسْتَبْعَد أن يقيم عليها الجاهليون أبنية تكون بمثابة مقامات لا تلبث أن تتحول إلى مزارات للعبادة والتقدّيس⁽²⁶⁹⁾.

وتفضيلهم للبنين على البنات جعلهم يذكرون في تلبّياتهم أن المتسكّين، المرتحلين للبيت - الذين تتوافر فيهم الأخلاق الحميدة التي أشرنا إليها آنفاً - هم قوم يكثر فيهم البنون والولد⁽²⁷⁰⁾، وقد حكى الله سبحانه وتعالى حبّهم للذكور دون الإناث في عدد من آيات القرآن الكريم⁽²⁷¹⁾، ورُوِيَتْ أخبار عن بعض القبائل أنها كانت تمتن المرأة وتحقّرها⁽²⁷²⁾.

ويلحظ في تلبّيات أخرى إحساسهم بالذات الإلهية إحساساً مادياً ينصرف إلى وصفه بأنه كريم معطاء، وقد عبّروا عن ذلك بكلمة "الماجد"، وليس "الماجد" صفة لله تعالى، ولم يرد في القرآن الكريم - أو في كتب المفسّرين - أنه من أسمائه سبحانه وتعالى أو من صفاته، أما اللغويون فذكروا "الماجد" في أسماء الله تعالى⁽²⁷³⁾، في حين أن الصفة التي عرفها المسلمون لله سبحانه وتعالى هي "المجيد" في قوله عزّ وجلّ⁽²⁷⁴⁾: «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ»؛ فإما أن يكون عرب الجاهلية قد استفادوا من المعنى اللغوي للكلمة، فنقلوا معناها من الاسم إلى الصفة، نقلًا أرادوا فيه الاتساق مع الصفات الأخرى التي ذكروها في التلبية، وإما أن يكونوا اشتقّوا من "مجيد" على وزن فعيل "ماجداً" على

ذلك بقولها:

لَعَلَّهَا تَأْتِيكَ حَقًّا لَا قُوكُ

الخاتمة

ويخلص الباحث إلى نتيجة مؤداها أن التلبيات الجاهلية أعطت صورة واضحة - إلى حد ما - عن بعض جوانب الحياة الدينية في العصر الجاهلي، أوضح من الصورة التي نجدها في الشعر الجاهلي، ولعل سبب ذلك يعود إلى ارتباط التلبيات عند العرب الجاهليين بطبيعة حياتهم الدينية، بل هي مرآة هذه الحياة التي اقتبسوا منها أحوالاً معينة من خلال أدائهم لشعائهم الدينية وطقوس عبادتهم، بحيث جاءت في صيغ أدبية تشكّلت في هذه القوالب الفنية، التي تتوّعت أداء ومضموناً بتنوّع نداءاتهم، وتعدّد حاجاتهم، وطريقة إنشادهم، وترديد نغماتهم لها.

وقد اتضحت معالم هذه الصورة عند الباحث عندما وجد أن الموضوعات التي يدرسها في هذا البحث تشكّل ظاهرة عامة في التلبيات الجاهلية، هي نتيجة لقيام العرب بالمناسك العامة، والأعمال الدينية المحسوسة التي يُقصد منها تحقيق منافع مادية ملموسة، كان الجاهليون يسعون إليها سعياً من خلال هذه الظاهرة التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بإرضاء آلهتهم والتقرّب إليها. وقد شملت هذه الموضوعات توسّلات العرب الجاهليين لآلهتهم، ومناسك حجّهم، واحتفالاتهم الدينية، بحيث كانت الصفة الدينية للتلبيات، وطبيعة العرب الماديّين السمة الغالبة عليها.

وقد لجأ العرب إلى التوسّل للآلهة بالأدعية الدينية؛ لأنهم وجدوا فيها المنفس الروحي الذي يفرّجون به عن نزعاتهم النفسية وما اعتوّرها من غمٍّ أو همٍّ أولاً، والمنفعة المادية التي يطمحون إلى تحقيقها ثانياً، لاعتقادهم أن الآلهة تسمع شكواهم، ومن ثمّ تلبي مطالبهم إذا هم أرضوها في صورة من صور التذلل والتواضع التي تصل إلى حدّ العبودية، والتي يشعر المرء إزاءها بعظمة الآلهة وهيبتها، ولذلك توسّلت لآلهاتهم توسّلات كثيرة تنوّعت بتنوّع حاجاتهم، وشدّوا رواحهم للوصول إليها ومخاطبتها عن قُرب، وتحملوا في سبيل ذلك وعناء السفر، وعناء الطريق، مرتحلين إليها في الليل والنهار، شيوخاً وولداناً، مشاة وركباناً، مخلفين وراءهم كل شيء هو

دونها في القيمة عندهم.

وكان من أهم الحاجات التي توسّل بها العرب إلى آلهتهم الدعاء بالاستسقاء ووفرة الرزق، وطلب الرحمة والمغفرة من الذنوب، والهداية إلى الصواب، وكانت العبادة من أهم الأعمال الصالحة التي يتقرّب بها العبد إلى إلهه ليستجيب لمطالبه، ويلتمس بركته؛ فهي فضيلة لا توجد في المرء إلا إذا حسنت أخلاقه، وصلحت أعماله، وحُمدت أفعاله، على أن التحلّي بمثل هذه الصفات قد يكون سبباً من الأسباب التي تكفّ عنهم أذى الآلهة وعقوبتها لهم.

وقد أظهرت التلبيات أن شعائر العبادة للمتوسّل تكون بالطواف بالأصنام المنصوبة حول البيت، وترديد التلبية بالإنشاد في هتاف جماعي، والقيام بمناسك الحجّ من زيارة للبيت والطواف حوله ولَمْسَ الحَجَرِ الأسود والطواف بالصفّا والمزوّة والوقوف بعرفة، وأداء الواجبات المفروضة عليهم في الحجّ، كالصلاة والتصدّق بالأموال وإهداء البُذْن، وتقديم الهدايا إلى آلهتهم.

ولم تقتصر التلبيات على تصوير مناسك حجّ أهل الجاهلية، وإنما اتصل الحديث عنها بالحديث عن صفة البيت الحرام، ووُصف المتعبّدين الحاجّين إليه، ووُصف رواحهم التي تحملهم إلى الحجّ، بحيث كان ورودها فيها وروداً لازماً جاء متمماً للصورة العامة التي تكتنف هذه المناسك.

كما أظهرت التلبيات أن بعض هذه المظاهر الدينية كانت تؤدي في طقوس جماعية ومشاهد جماهيرية عامة، كانت تقام في مناسبات موسمية كموسم الحجّ إلى مكة، ولعل الجاهليين قصدوا من هذه المشاهد المبالغة في إظهار النُكس لآلهاتهم مبالغة تدل على رغبتهم الشديدة، بل على إلحاحهم الشديد في أن تستجيب آلهاتهم لهم.

وقد وجد الباحث لزماً عليه أن يكمل حديثه - عن توسّلات العرب في التلبيات الجاهلية - بموضوعات أخرى فرعية، ذات صلة بها وخاصة فيما يتعلّق بعلاقتهم بآلهتهم، إذ تبين هذه الموضوعات علاقة طبقة اجتماعية رفيعة المستوى بآلهتهم أنها علاقة فوقيّة تختلف عما عهدناه في تلبيات العرب عامة من التواضع والتذلل للصنم، ونظرتهم إلى البنات وعلاقتهم بإساف ونائلة وتقضيلهم للذكور عليهن، ومن ثمّ نظرة العرب إلى إلههم نظرة حسية بحيث يتصورونه أنه إله الجمال عندهم.

الهوامش

- (1) ابن منظور، لسان العرب: (الب)، وانظر الشافعي، كتاب الأم 184:5/3، والعيني، عمدة القاري 172:9،

- والقسطلاني، إرشاد الساري 42:4، والبغدادي، حاشية على شرح بانث سعاد 151:2، وتفصيل التلبية: معناها واشتقاقها في العمري، تلبيات العرب في الجاهلية: 140-147.
- (2) ابن منظور، لسان العرب: (حجج).
- (3) أي عند الزيارات، انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 395:6.
- (4) ابن منظور، لسان العرب: (هلل).
- (5) الطبري، تفسيره (شاكر) 319:3.
- (6) وكان نشر في الجزء الثاني منه بحثه: نصوص التلبيات قبل الإسلام: 143-189، الذي نشره سابقاً في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية. (انظره في قائمة المراجع).
- (7) ابن منظور، لسان العرب: (وسل).
- (8) توسيلاً في الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وسل).
- (9) كتوسل في المصدر السابق: (وسل).
- (10) الطبري، تفسيره (شاكر) 290:10، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (وسل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 50:2، 46:3، وابن حجر، فتح الباري 314:9.
- (11) الزمخشري، أساس البلاغة: (وسل). وتوسلت: بمعنى تَقَرَّيْتُ.
- (12) الطبري، تفسيره (شاكر) 291:10، والطبري، تفسيره (بلاق) 72:15، 73، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 50:2.
- (13) ابن حجر، فتح الباري 300:2.
- (14) الإسراء، الآية: 57.
- (15) الطبري، تفسيره (بلاق) 73:15.
- (16) المائدة، الآية: 35.
- (17) الطبري، تفسيره (شاكر) 290:10.
- (18) البغدادي، خزنة الأدب 254:2.
- (19) لبدي، شرح ديوانه: 256. والواصل: الطالب الذي يطلب، من قولك: أنت وسيلتي إلى فلان، والواصل: هو الراغب إلى الله، بمعنى ذو وسيلة. وما قَدَّرَ أمرهم: لا يعرفون ما هم فيه من خطر الدنيا وسرعة زوالها. وذو لب: هو اللبيب وهو العاقل.
- (20) انظر ابن تيمية، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: 5، 14، 48 - 50.
- (21) ابن منظور، لسان العرب: (وسل).
- (22) مسلم، صحيح مسلم: 289، وانظر الترمذي، سنن الترمذي: 999، وذكر - في الحديث - عن رسول الله (ﷺ) أن الوسيلة أعلى درجة في الجنة، وعَقِبَ عليه فقال: "هذا حديث غريب، إسناده ليس بالقوي"، وروايات كثيرة في ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 51:2.
- (23) البخاري، صحيح البخاري 159:1، وانظر 108:6.
- (24) ابن منظور، لسان العرب: (وسل).
- (25) فقال: "والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود". ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 50:2.
- (26) المصدر السابق 50:2، وذكر ابن كثير، تفسير القرآن
- العظيم: 51 تفسيرها عن رسول الله (ﷺ) أنها "أعلى درجة في الجنة".
- (27) البخاري، صحيح البخاري 108:6.
- (28) الإسراء، الآية: 79.
- (29) على اعتبار أن ابن حجر فسّر الوسيلة: هي ما يُتَقَرَّبُ به إلى الكبير. انظر حديثه فيما سبق.
- (30) ابن حجر، فتح الباري 300:2.
- (31) ابن تيمية، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: 49، وانظر ص: 42.
- (32) المصدر السابق: 6، 14، 49، 50.
- (33) ابن منظور، لسان العرب: (وسل)، وانظر الجرجاني، التعريفات: 272.
- (34) الطبري، تفسيره (شاكر) 290:10.
- (35) عنتره، ديوانه: 273. قوله: إن الرجال لهم إليك وسيلة: هذا منه وعيد وتخويف أن تُسَبِّىَ امرأته فيُسْتَمْتَعَ بها. وتكَلَّيَ وتَخَضَّيَ: أي إن يأخذوك تكَلَّيَ لهم وتَخَضَّيَ ليستمتعوا بك.
- (36) الطبري، تفسيره (شاكر) 290:10، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 50:2.
- (37) انظر بالإضافة إلى ما سيأتي علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 183-181:6، 303، 324-327.
- (38) وهو مطلع التلبية الخليلية الذي حافظت عليه كثير من التلبيات الجاهلية، ولم تستطع التخلص منه، وهو: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ".
- (39) ذكر ابن الكلبي وابن حبيب أخباراً تشير في مضمونها العام إلى أن هذه الأصنام تسمع لهم ويسمعون لها، فقال ابن الكلبي، الأصنام: 27، 34: "وكان لحمير... بيت بصنعاء يقال له ريام (أو رثام)... وكانوا - فيما يذكرون - يَكْلَمُونَ منه". وقال عن العزى: "وكان الذي اتخذ العزى ظالمً بن أسعد، كانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حُرَاصٌ، بإزاء الغُمَيْرِ عن يمين المُصْعَدِ إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عِزْقٍ إلى البُستان بتسعة أميال، فبنى عليها بُساً - يريد بيتاً - وكانوا يسمعون فيه الصوت"، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 28، والبكري، معجم ما استعجم: 620-621. وقال ابن حبيب، المحبر: 318: إن المنطبق كان للسلف وعك والأشعرين، وكان صنماً من نحاس، يَكْلَمُونَ من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 286، وقال في (6: 192): "فالإله أو الآلهة طرف يسمع ويتعاقد ويجيب ويفعل أو تفعل تماماً كما يفعل الإنسان".
- (40) كالصلاة والصدقة، وتقديم الأضاحي والهدايا، انظر ما سيأتي من حديث.
- (41) انظر رأي المعري، رسالة الغفران: 534-537، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 144:2.

- (42) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123. ولَبُّوك: لزموا أمرك. وتشير تلبية كل من ربيعة وقضاعة الآيتين إلى أنهم يسمعون لأوامر آلهتهم التي تستمع لمطالبهم، ومن ثم تستجيب لهم.
- (43) كتقديم القرابين والهدايا والنذور. انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 184-185، و344-345.
- (44) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 117. والرحمن: على وزن فعْلان، معناه الكثرة، أي أن رحمته وسِعَتْ كل شيء وهو أرحم الراحمين، وهو مقصور على الله عز وجل. ومُذَلَّل: خاضعة، يقال: تَذَلَّلَ له، أي خضع. والذَّيَّان: من أسماء الله عز وجل، معناه الحكم القاضى.
- (45) ابن حبيب، المحبر: 314. وعبيد: جمع عبْد، وهو المملوك، خلاف الحرّ، وأصل العبودية الخضوع والتذلل.
- (46) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 120، والمعري، رسالة الغفران: 536. والتعبد: التَّنَسُّك. والرَّق: العبودية، وقيل: سُمِّي العبيد رقيقاً لأنهم يَرِقُّون لمالكهم وَيَذَلُّون وَيَخَضَعُونَ.
- (47) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 120، وانظر البيهقي، تاريخه 1: 206.
- (48) البيهقي، تاريخه 1: 256. ودفاع: شديدة الدَّفْع، صيغة مبالغة.
- (49) المصدر السابق 1: 256، وهي على الترتيب: تلبية مذَّجج: لَبَّيْكَ رَبَّ الشَّعْرَى، وَرَبَّ اللَّاتِ وَالْعُزَّى. وتلبية كندة وحضرموت: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، تَمْلِكُهُ أَوْ تَهْلِكُهُ، أَنْتَ حَكِيمٌ فَاتْرَكْهُ. وتلبية الأزدي: لَبَّيْكَ رَبَّ الْأَرْيَابِ، تَعْلَمُ فَصَلَ الْخَطَابِ، لِمَلِكٍ كُلِّ مَثَابٍ. وتلبية النُّخَع (قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 125): لَبَّيْكَ رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَخَالِقِ الْخَلْقِ وَمُجْرِي الْمَاءِ. وانظر رأي العمري، تلبيات العرب في الجاهلية: 154، و158، و161، و204-205 في بعض هذه التلبيات بما يتسق مع عقيدة التوحيد، عقيدة إبراهيم عليه السلام.
- (50) يقال: شفع إلى فلان: توسل إليه بوسيلة، وتشفع فلان إلى فلان في الأمر، وتشفع به إليه: توسل إليه. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (شفع).
- (51) ابن حبيب، المحبر: 312، وهي: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ بِمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْكَ.
- (52) المعري، رسالة الغفران: 535. وشاحط: بعيد. ودان: قريب. والحرف: الناقة الضامرة الصلبة، شبهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها، أو هي النجبية الماضية التي أنصتها الأسفار، شبهت بحرف السيف في مضائها ونجائها وبقوتها. ومِذْعان: الإذعان، الانقياد والطاعة، وناقة مِذْعان: سَلِسَة الرأس منقادة لقائدها. والغيطان: الأراضي المتسعة، جمع غَوَظ.
- (53) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119 - 120. وأدلجت: سارث ليلاً. وماجد: مفضل كثير الخير شريف، وسيأتي التعليق عليه.
- (54) عبيد، ديوانه: 91، وانظر الحارث بن جُلْزَة، ديوانه: 40. ومزْمومة: شُدَّتْ بِالزَّمَامِ، أي الحبل. ومِمْمَات: قاصدات.
- (55) علقمة، ديوانه: 51. والبيّن: الفراق. وأزْمَعُوا: عَزَمُوا أمرهم، أي مَضَوْا فيه. ومزْموم: شُدَّتْ بِالزَّمَامِ، أي الحبل. والظُّعْن: سَيْر البادية لثُجَّة أو حضور ماء.
- (56) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119. والإدلاج: سير الليل، قيل: كله، وقيل: من أوله، وقيل: من آخره، وقد ادلجوا. والقر: البرد.
- (57) كالصلاة والصدقة، وتقديم الأضاحي والهدايا كما سيأتي.
- (58) المصدر السابق: 123-124. وحاء وهلم: يدل هذا التعبير على الشوق للوصول إلى الحج بأسرع ما يستطيعون. ومكابدة الأمر: معاناة مشقته. ومُذْلَم: أسود. والسلم: نوع من العضاه. وهاله هَوَلاً: أفرعه. والضرم: ضربت النار، اشتعلت والتهبت.
- (59) المصدر السابق: 123. ونؤم: نقصد.
- (60) انظر تلبية همدان السابقة، وكذلك تلبية هذيل.
- (61) المصدر السابق: 117. ورجال: جمع راجل، أي ماش. والولدان: جمع الوليد، وهو المولود حين يُولَد.
- (62) البيهقي، تاريخه 1: 256. والراجل: الماشي.
- (63) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 120. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والمُخِيل: السحابة المُخِيلَة التي إذا رأيتها حسبته ماطرة، فإذا وقع المطر ذهب عنها اسم التخيل.
- (64) ابن حبيب، المحبر: 314. وأحبنا: حباً فلاناً: أعطاه بلا جزاء ولا من.
- (65) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 124-125، والمعري، رسالة الغفران: 536. والرَّجِيل: القوي على المشي الصبور عليه. والرَّجِيل من الرجال: الصُّلْب. وعلى هذا فالرَّجِيل: القوي الصلب. والوسيلة: الوصلة والقربى، وما يُتوسل به إلى الله تعالى، من فعل الخيرات واجتناب المعاصي. والطواف بالبيت: الدوران حوله.
- (66) انظر عباس، نصان جديدان عن الدين في الجاهلية: 31-32.
- (67) ابن حبيب، المحبر: 314.
- (68) المعري، رسالة الغفران: 535. والأمر: الكثير، ورجل أمر: الرجل المبارك يقبل عليه المال. والزمر: القليل الخير. والخمر: الكثير الخمر وهو الشجر الملتف، والسيل الخمر: أي الكثير الذي يغطي الوديان.
- (69) ثبير: أعظم جبال مكة، وهو على يسار الذهاب إلى منى، عُرف برجل من هذيل اسمه ثبير دُفِن فيه. البغدادي، حاشية على شرح بانث سعاد 2: 559، وانظر البكري، معجم ما استعجم: 336، وابن حجر، فتح الباري 4: 348.
- (70) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 124. وأرسى: رَسَا الجبل، إذا ثبت أصله في الأرض ورسخ. والصوب: نزول المطر.

- (82) ابن حبيب، المحبر: 314. وكُنُود: جُود، كُفُور بالنعمة. وجُود: الجُود، الإنكار مع العلم. ورُصود: التَّزُودُ، التَّزُودُ. قال الليث: والإِرصاد في المكافأة بالخير، وقد جعله بعضهم في الشرِّ أيضاً؛ والحية لا تُزُودُ إلا بالشرِّ. ابن منظور، لسان العرب: (رصد).
- (83) انظر في ذلك علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 181.
- (84) ابن حبيب، المحبر: 312. والجُبار: الهَدَر. والمنار: محجة الطريق.
- (85) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 326 - 328.
- (86) ابن حبيب، المحبر: 314. والبَطَر: الأَشْر، والطغيان في النعمة. والأَشْر: المَرَح والبَطَر. وفَنَحَه الأمر: أنقله، والفادحة: النازلة. والعتار: العثرة، الزلة.
- (87) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 192، وانظر ص: 297 - 298.
- (88) ابن حبيب، المحبر: 318.
- (89) ابن الكلبي، الأصنام: 27.
- (90) المصدر السابق: 34، وياقوت الحموي، معجم البلدان 4: 131.
- (91) ورد مطلعها فيما مضى، وانظر قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123.
- (92) الجاحظ، الحيوان 6: 201. وأطاف: جمع لُطَف، وهو الرفق في العمل.
- (93) وهو أحد المعاني الذي احتملها تفسير قوله: "فصل الخطاب" في الآية أعلاه، وقيل: هو البيئة على المدعي واليمين على المدعى عليه. وقيل: الفصل، القطع، والخطاب: المخاطبة. وانظر ما سيأتي، والطبري، تفسيره (بولاق) 23: 88 - 89.
- (94) المصدر السابق (بولاق) 23: 89، وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4: 32.
- (95) ص، الآية: 20.
- (96) البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 181.
- (97) الزمخشري، الفائق 3: 283، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (نخ).
- (98) الزمخشري، الفائق 3: 283، وفي ابن منظور، لسان العرب: (شوه) أن اللفظة فارسية وتعني ملك الملوك.
- (99) العمري، تلبيات العرب في الجاهلية: 151، و 153-155، و 161، و 204-205، وذكر ابن الكلبي، (الأصنام: 22-23) من قبل أن العرب مع دخول الوثنية إليهم ما زالت فيهم بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتسكنون بها، وأنهم كانوا يوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده. انظر مناقشة هذا الموضوع في المرجع السابق: 156-159.
- (100) البعقوبي، تاريخه 1: 256. والملك: هو الله تعالى وتقدس، وقيل: الملك الله وغيره، والملك لغير الله. ومثاب: جمع
- والغمام: جمع غمامة، وهي السحابة. وزُئِدَ: زُئِدَ، أقام، وحيس. والجَمَد: ما جَمَدَ من الماء، وهو نقيض الذوب. والرُفْد: العطاء.
- (71) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 221 - 222.
- (72) انظر المرجع السابق 6: 181.
- (73) المعري، رسالة الغفران: 537. وَعَنَى: نَصِبَ، والعناء: التعب. والجَنَى: ما يُجَنَى من الشجر، وكل ثمر يُجَنَى فهو جَنَى، والاجتناء: أخذك إياه.
- (74) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 125.
- (75) المعري، رسالة الغفران: 535. وقد مرَّ تفسير المفردات فيها.
- (76) العمري، تلبيات العرب في الجاهلية: 154، وانظر تعليقنا على تلبية الأُرد في هذا الموضوع فيما يأتي.
- (77) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 125. وورد البيتان في مصادر كثيرة نُسباً فيها إلى الرسول ﷺ، وإلى أمية بن أبي الصلت، وإلى أبي خراش الهذلي، وإلى أهل الجاهلية. انظر هذه المصادر وترجيح نسبة البيتين إلى أمية بن أبي الصلت في: العمري، الشعر الجاهلي في تفسير الطبري: 660 - 661. والأصل أن قائل هذين البيتين هم عرب الجاهلية، كانوا يقولونها وهم يطوفون بالبيت (الطبري، تفسيره (بولاق) 27: 40، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4: 257)، ويبدو أن أمية أخذها عنهم فنسبها إليه في مصادر كثيرة، أما نسبتها إلى الرسول ﷺ فقال فيها الترمذي، الجامع الصحيح: 910: "هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا ابن إسحاق"، ورفع الطبري، تفسيره (بولاق) 27: 39، والحاكم، المستدرک على الصحيحين 2: 469-470، وعلّق عليه فقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وشكّك ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4: 258 في رفعه فقال: "وفي صحته مرفوعاً نظراً"، وانظر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان 7: 75. والجم: الكثير من كل شيء. وألماً: الإمام واللمم: مقارنة الذنب، وقيل: صغار الذنوب، وقيل: مقارنة المعصية من غير واقعة.
- (78) ابن حبيب، المحبر: 312.
- (79) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 181.
- (80) السائبة: أن يسبب الرجل من ماله ما شاء على وجه الشكر إن كثر ماله أو برأ من وجع، أو ركب ناقه فأنجح. الطبري، تفسيره (شاکر) 11: 130.
- (81) انظر في ذلك الزمر، الآية: 36، فقد أشار القرآن الكريم إلى تخويف المشركين الرسول ﷺ عندما تحرّش بالأصنام من أن يصاب بسوء، وانظر الطبري، تفسيره (شاکر) 11: 130، والطبري، تفسيره (بولاق) 24: 5، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 181، 183، 192، 327.

- الحياة العربية: 306.
- (113) من مثل ابن الكلبي، الأَصْنَام: 22-23، وابن حبيب، المحبّر: 311، والأزرقى، أخبار مكة 1: 120، 174-194، والشهرستاني، الملل والنحل: 241.
- (114) وسيأتي سبعا. انظر تعليقنا على ذلك فيما يأتي.
- (115) مَسْحُ الْحَجَر: يعني استلامه، والاستلام: المسح باليد والتقبيل بالفم، إن أمكنه ذلك من غير إيذاء أحد، وإلا يُستلم بالإشارة من بعيد، والاستلام افتعال من السَّلام بالفتح أي التحية. وقيل من السَّلام بالكسر أي الحجارة. ابن حجر، فتح الباري 4: 273، 276، 279، وانظر النووي، شرح النووي على صحيح مسلم 8: 175. والأحاديث التي تدل على معنى الاستلام في مسلم، صحيح مسلم: 924 - 927، والترمذي، الجامع الصحيح: 276.
- (116) ابن حبيب، المحبّر: 311، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل: 241.
- (117) الشهرستاني، الملل والنحل: 241. وكانت قريش لا تقف بعرفات، وسيأتي حديثنا عن ذلك.
- (118) ابن حبيب، المحبّر: 319، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 26، والشهرستاني، الملل والنحل: 241، وأضاف الشهرستاني؛ فقال: "طِيئ وخثعم، وبعض بني الحارث بن كعب، فإنهم كانوا لا يحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرم، ولا البلد الحرام".
- (119) الشهرستاني، الملل والنحل: 241.
- (120) ولا تعارض بين ما ورد هنا وما سيرد من طواف العرب عراة، لأن الذين يطوفون عراة هم الحلة من العرب، وليس الخمس.
- (121) الجاحظ، البيان والتبيين 3: 95. والعلائق: جمع علاقة، وهو ما يعلق به الشيء. وأوْذِمَ الحج: أوجبه على نفسه.
- (122) أوس، ديوانه: 121. أثواب الحَرَام: الثياب على رجل قد أَحْرَم. والمُهَيِّئِم: الذي يقرأ قراءة خفية، والمعنى أنه يسبح ويقرأ.
- (123) زهير، شعره: 12. والقَتَان: جبل لبني أسد. والحَزَن: ما غُظِّط من الأرض. ومن مُحَلٍّ: أي ليس في حُرْمَةٍ تمنعه من عهد وميثاق. ومُجْرِم: الذي له حُرْمَةٌ وُدْمَةٌ من أن يُغار عليه.
- (124) اليعقوبي، تاريخه 1: 255.
- (125) يوسف، الآية: 106.
- (126) ابن الكلبي، الأَصْنَام: 23، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 80، وابن حبيب، المحبّر: 311، وابن كثير، البداية والنهاية 1: 175.
- (127) قطرب، الأُزْمَنَة وتلبية الجاهلية: 116-117، والشهرستاني، الملل والنحل: 236، 241، وابن كثير، البداية والنهاية 1: 174-179، باختلاف في النسبة فيها.
- (128) قطرب، الأُزْمَنَة وتلبية الجاهلية: 121. وعَجَّ: رفع صوته وصاح، قيل: بالدعاء والاستغاثة. والعَجَّ أيضاً: رفع الصوت بالتلبية. وانتجع: أصله طَلَبَ الكَلَأَ في موضعه، والمعنى
- المتأبة، وهي الموضع الذي يُثَاب إليه أي يُرْجَع إليه مرّة بعد أخرى.
- (101) وأوقع بنصاري نجران في القصة المعروفة باسم أصحاب الأخدود، التي قصّها القرآن الكريم فيما بعد في سورة "البروج"، وقد استبعد المؤرخون والباحثون أن يكون ذو نواس هو صاحب الأخدود، ويذكرون في ذلك روايات كثيرة. انظر في ذلك كله: ابن الكلبي، الأَصْنَام: 27-28، 69، وابن هشام، السيرة النبوية 1: 32، 37، والطبري، تفسيره (بولاقي) 30: 84-88، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن 30: 58-6، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 165، ويبلو، تيارات عقيدة وثقافية: 35-36، 58، والجبوري، الشعر الجاهلي: 112، وخفاجي، الحياة الأدبية: 58، والعقيلي، اليهود في شبه الجزيرة العربية: 80-85.
- (102) ابن حبيب، المحبّر: 314، وقد مرَّ شطران منها، ومرَّ تفسير عبيد. ومُيسرة: اللِّين، اللِّين والانتقاد، والمُيسرة: السهولة والغنى. وعَتِيد: الحاضر المهيأ، والحاضر المعد. والصَّيْد: جمع الأصْيَد، وهو الذي يرفع رأسه كِبْرًا، ومنه قيل للملك: أصْبَدَ لأنه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً.
- (103) ياقوت، معجم البلدان 5: 211، واستشهد على قوله بالشرط الأول والثاني من التلبية المذكورة.
- (104) الفاكهي، أخبار مكة 2: 282، وابن منظور، لسان العرب: (بك). وثَبُّكَ: تدقّ.
- (105) الفاكهي، أخبار مكة 2: 282. وبسَّئْهُ، أي تَبَسَّ مِنْ أَلْحَدِ فيها أي تهلكه أي تحطّمه. الفاسي، شفاء الغرام 1: 49.
- (106) قطرب، الأُزْمَنَة وتلبية الجاهلية: 124، وانظر الفاكهي، أخبار مكة 2: 282. والفاجر: المنبعث في المعاصي والمحارم، والفاسق، والكاذب. ومُكِّي مَكَا: مَكَّه، أهلكه، ومَكَّة: البلد الحرام، قيل: سميت بذلك لأنها كانت تَمُكُّ من ظَلَمَ فيها وأَلْحَدَ أي تهلكه. والدَّكَّ: الهدم.
- (107) انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 181-183، 303، 324-327.
- (108) ذكر الأزرقى، أخبار مكة 1: 120، 177-178 شيئاً من ذلك في طواف الحلة بالبيت.
- (109) ولعل في هذا مقنعاً يفسّر أن تلبيات كثيرة لم تصل إلينا كاملة، وأنها أطول مما رأينا، لأن الرواة أسقطوا منها - في رأيي - جزءها الوثني، يعزّز ذلك قول المعزّي، رسالة الغفران: 537: "ولم تأتِ التلبية بالقصيد، ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة".
- (110) بناء على ما وصل إلينا منها، مع الأخذ بعين الاعتبار أسباب ذلك.
- (111) إلّا ما ذكر من اختلاف بين الخمس والحلة. انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 357-374 في مواضع متفرقة، و379، 382-383.
- (112) ابن الكلبي، الأَصْنَام: 22-23، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 80، والأزرقى، أخبار مكة 1: 116، والحوفي،

ويقال: جعلهما جميعاً في موضع زمزم. المصدر السابق 119:1-120.

(144) انظر ابن هشام، السيرة النبوية: 214-215، والأزرقي، أخبار مكة 1: 174-175، 176، 177-178، 182، والبخاري، صحيح البخاري 1: 103، 2: 200، ومسلم، صحيح مسلم: 894، 982، والطبري، تفسيره (شاكر) 4: 189، 12: 377-379، 389، 390، 392-393، وابن عبد البر، التمهيد 6: 377-379، والسهيلي، الروض الأنف 1: 231، وياقوت، معجم البلدان 5: 214، والقرطبي، تفسيره 7: 189، والنووي، شرح النووي على صحيح مسلم 8: 197، 9: 116، 18: 162-163، وابن منظور، لسان العرب: (حرم)، (رهط)، وابن حجر، فتح الباري 4: 327، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 170، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 357، 359، 360، والعمرى، مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: 264.

فَاللّٰقَى: "ثَوْبُ الْمُحْرَمِ يَلْقِيهِ إِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ... قِيلَ: أَصْلُ اللَّقَى أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا طَافُوا خَلَعُوا ثِيَابَهُمْ، وَقَالُوا: لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابِ عَصِينَا اللَّهُ فِيهَا، فَيُلْقُونَهَا عَنْهُمْ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الثَّوْبَ لَقَى، فَإِذَا قَضَوْا سُكُّهُمْ لَمْ يَأْخُذْهَا وَتَرَكُوهَا بِحَالِهَا مُلْقَاةً". وقيل أيضاً: اللَّقَى "هذه الثياب التي يطوفون فيها يرمون بها بباب المسجد فلا يمسه أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام". وعلى ذلك فاللّقى عند العلماء ثوب المحرم يلقيه عنه قبل أو بعد أن يطوف بالبيت. انظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 214-215، والأزرقي، أخبار مكة 1: 174-175، 178، 182، والطبري، تفسيره (شاكر) 12: 393، وابن عبد البر، التمهيد 6: 378، والسهيلي، الروض الأنف 1: 231، والقرطبي، تفسيره 7: 189، والنووي، شرح النووي على صحيح مسلم 18: 162-163، وابن منظور، لسان العرب: (لقا)، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 357، 359-360.

(145) الأعراف، الآية: 31.

(146) ورقة، شعره: 108. والحریم: ما كان المحرمون يُلقونه من الثياب فلا يلبسونه. وقيل: الحریم: الذي حرّم مسّه فلا يُدْنَى منه. وقد يذكر "اللّقى" عند علماء اللغة باسم "الحریم"، وإنما جاءت تسميته على هذا النحو لأنه حرّم مسّه.

(147) السكري، شرح أشعار الهذليين: 1112. والرّيد: الحيد في الجبل كالحائط، وهو الحرف الناتئ منه. واللّقا: ثوب خلق. ووقّبتُها: خرّقتها من أعلاها إلى أسفلها، والوقّب: النّقّب في الجبل. ويتذبذب: يتطوّح.

(148) الأزرقي، أخبار مكة 1: 176.

(149) الأعراف، الآية: 32.

(150) الأزرقي، أخبار مكة 1: 178، وذكر أن المرأة الطائفة هي: ضباعة بنت عامر بن قُرط. انظر الجاحظ، القيان (رسائل

أنهم أتوا هذه المواضع.

(129) المصدر السابق: 122. والسّعي: عدو دون الشد.

(130) اليعقوبي، تاريخه 1: 256.

(131) ابن حبيب، المحبّر: 312. ويلى: خلّق، والمعنى لم يترك حتى يخزب.

(132) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 126، وانظر ص: 120، 121، وابن حبيب، المحبّر: 312. والنصاحة: التوبة النصوح الخالصة. والرقاحة: الكسب والتجارة.

(133) البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 146.

(134) النووي، شرح النووي على صحيح مسلم 8: 174.

(135) ابن حجر، فتح الباري 7: 528.

(136) ابن حجر، تلخيص الحبير 2: 459، والعيني، عمدة القاري 9: 173، والقسطلاني، إرشاد الساري 4: 43. ويبدو أن الرسول ﷺ كان يلبي - في أول الأمر - تلبية بكر بن وائل عندما سمع تليبتهم، وهي: "لَبَّيْكَ حَقًّا حَقًّا، تَعَبُّدًا وَرِقًّا"، (قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 120)، وهي التلبية التي ذكرها ابن حجر في سند يصل إليه ﷺ، ثم صحّح لهم تليبتهم للسبب الذي ذكرناه، فلبّي تلبية خاصة به، وهي التلبية التي رواها العيني والقسطلاني، ثم لبّي بها الأنصار من بعد - كما هو في المتن أعلاه - يقول البياتي، أصالة الوحدة العربية: 45: "وإن كان الرسول ﷺ قد لبّي ببعض التليبات كما تزعم إحدى الروايات، وهي تلبية بكر بن وائل وسائر قبائل ربيعة ... وإذا صحّت هذه الرواية، يكون الرسول قد صحّح لبعض القبائل تليباتها لكونها موجّهة لله، كما صحّح للعرب كلهم تليبتهم الأولى".

(137) البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 146.

(138) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123.

(139) الأزرقي، أخبار مكة 1: 181-182.

(140) المصدر السابق 1: 182، وانظر الطبري، تفسيره (شاكر) 12: 390، وابن عبد البر، التمهيد 6: 378.

(141) كانت العرب على دينين حلة وحُمس، فالحُمس: أهل مكة قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ممن ولدوا من حلفائهم وإن كان من ساكني الحل، والأحمسي المشدّد في دينه. الأزرقي، أخبار مكة 1: 177، وانظر ص: 175، 179، 181، وابن هشام، السيرة النبوية 1: 212، وابن حبيب، المحبّر: 178-179، وأبو الحواري، الدراية: 86، 91، والطبري، تفسيره (شاكر) 4: 184، 185، 188، وياقوت، معجم البلدان 5: 214، والقرطبي، تفسيره 7: 189، والنووي، شرح النووي على صحيح مسلم 8: 197، وابن حجر، فتح الباري 4: 327، 328، 329، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 357-374.

(142) الأزرقي، أخبار مكة 1: 174، 175، 178، 180.

(143) وستأتي الإشارة إليهما. ذكر الرواة أنهما كانا في أول أمرهما على الصفا والمروة، ثم حوّلتهما قُصَي بن كلاب فجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر في موضع زمزم،

البيت أسبوعاً يُحْصِيهِ كُتِبَ له بكل خطوة حسنة، وكُفِّرَ عنه سيئة، وُفِّعَتْ له درجة، وكان عَدْلَ عَتَقِ رَقَبَةٍ". وانظر ابن حنبل، المسند 4: 271، والترمذي، الجامع الصحيح: 302، وابن حبان، صحيحه 10: 9.

(163) ابن الكلبي، الأصنام: 34. والغرائيق: مفردا غرنوق، وهو طائر أبيض طويل العنق من طيور الماء.

(164) الأزرقي، أخبار مكة 1: 178، وانظر 1: 120، وذكر البيهقي، تاريخه 1: 254 أن الطائف إذا طاف بدأ بإساف، فقبله، وختم به، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 358-359.

(165) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123. وقد سمى رجب بذلك لأنهم كانوا لا يسمعون فيه قعقة السلاح لكونه شهراً حراماً.

(166) عرفة وعرفات: موضع بمكة، خارجة من الحرم. البكري، معجم ما استعجم: 1191، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).

(167) المزدلفة: موضع بمكة، من الحرم. البكري، معجم ما استعجم: 1191، والسهيلي، الروض الأنف 1: 144، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).

(168) الطبري، تفسيره (شاكر) 4: 185. والمَشْعَرُ: "هو ما بين جبلي المزدلفة من مَأْرَمِي عرفة إلى مُحَسَّر. وليس مأزماً عرفة من المشعر". (الطبري، تفسيره (شاكر) 4: 175، وانظر ص: 176-179، وابن منظور، لسان العرب: (شعر). ويقال: هو قرن فَرْح. الطبري، تفسيره 4: 17. والقرن: الجُبَيْل المنفرد، وقيل: هو قطعة تنفرد من الجبل، أو هو الجبل الصغير، أو هو الجبل الصغير المنفرد. والمأزم: كل طريق ضيق بين جبلين. ومأزماً عرفة: مضيق بين جَمْع وعرفة. انظر البكري، معجم ما استعجم: 1173، وابن منظور، لسان العرب: (أزم)، (قرن).

(169) انظر في ذلك كله: ابن هشام، السيرة النبوية 1: 212، 215، وابن حبيب، المحبر: 319، ومسلم، صحيح مسلم: 893-894، والطبري، تفسيره (شاكر) 4: 184-188، وابن منظور، لسان العرب: (حمس)، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 379-380، 382-383.

(170) تفسيره (شاكر) 4: 189، وانظر تفسير فَرْح في ابن منظور، لسان العرب: (قزح).

(171) من قبائل الحُمس. انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 363.

(172) عمرو بن قميئة، ديوانه: 22.

(173) المصدر السابق: 22. ونُقْعَةُ: المَشْعَر. واللفظة ليست في معاجم البلدان. ويرح بُرُوحاً: زال.

(174) ويفيضون منه إلى المزدلفة. الأزرقي، أخبار مكة 1: 180-181، 188، 189.

(175) مسلم، صحيح مسلم: 894.

الجاحظ (2: 149-151، والقرطبي، تفسيره 7: 189. وروي في هذا الخبر أن النساء كن يطفن بالبيت عراة، إلا أن تجعل المرأة على قُبْلِهَا (فرجها): نسعة، أو خِرْقَة، أو زَهْطاً من سُيُور، أو تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها وتستنر بها، أو تَطَوِّفاً، أو درعاً مفرج المقادير والمآخير. انظر الفراء، معاني القرآن 1: 377، وابن هشام، السيرة النبوية 1: 215، والأزرقي، أخبار مكة 1: 182، والجاحظ، القيان (رسائل الجاحظ) 2: 149-151، ومسلم، صحيح مسلم: 2320، والطبري، تفسيره (شاكر) 12: 377، 389-393، وابن عبد البر، التمهيد 6: 377، 378، والسهيلي، الروض الأنف 1: 232، وياقوت، معجم البلدان 5: 214، والقرطبي، تفسيره 7: 189، والنووي، شرح النووي على صحيح مسلم 18: 162، وابن منظور، لسان العرب: (حرم)، (رهط)، وابن الديبع، تيسير الوصول 1: 127-128، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 358، والعمري، مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: 265-266.

(151) الأعراف، الآية: 31، وانظر كتب التفسير في الحاشية السابقة. والمقصود بالزينة في الآية: الثياب الساترة للعورة.

(152) خفاف، شعره: 29. قوله: متى يحل له الطيب: يذكر أنهم كانوا يحرمون الطيب على المحرم، ثم يحل له إذا أتم حجه، وذلك من شعائر إبراهيم.

(153) الأعراف، الآية: 28، وانظر الطبري، تفسيره (شاكر) 12: 377-379.

(154) ابن منظور، لسان العرب: (حرم)، وذكر الأزرقي، أخبار مكة 1: 182 أنهم كانوا يقولون: "لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب".

(155) الطبري، تفسيره (شاكر) 12: 377.

(156) السهيلي، الروض الأنف 1: 231، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 357.

(157) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 359.

(158) المرجع السابق 6: 361.

(159) البيهقي، تاريخه 1: 255. وأخلقت: الخلق، البالي. وأخلصت: وأخلص لله دينه، أمحضه. ودعاءها: الدعاء، العبادة.

(160) وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعكّ وعجيب، وإياد بن نزار. ابن حبيب، المحبر: 179.

(161) المصدر السابق: 181.

(162) الأزرقي، أخبار مكة 1: 178، 182، وفي ابن حبيب، المحبر: 311 "ويطوفون بالبيت أسبوعاً"، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل: 240، وقال ابن منظور، لسان العرب: (سبع): "طاف بالبيت أسبوعاً أي سبع مرات؛ قال الليث: الأسبوع من الطواف ونحوه سبعة أطواف". وفي كتب الحديث ما يوضح الطواف على هذا النحو؛ فقد روى ابن حنبل، المسند 5: 191 أن الرسول ﷺ قال: "مَنْ طاف بهذا

- (176) ابن هشام، السيرة النبوية 1: 212، وانظر الأزرق، أخبار مكة 1: 177، 181، والطبري، تفسيره (شاعر) 4: 188.
- (177) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 118. ويوم التعريف: يوم الوقوف بعرفات. والشج: في الرأس، وهو أن تضربه بشيء فتجرحه فيه وتثقه، ويراد به: الذبح.
- (178) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 383.
- (179) وفي رواية لابن حبيب، المحبر: 319 أنهم كانوا يُدفعون منها والشمس حية.
- (180) الأزرق، أخبار مكة 1: 189، وانظر ص: 177، 180 – 181، وابن هشام، السيرة النبوية 1: 126-128، 215، وابن حبيب، المحبر: 319، وفي موضع آخر (ص: 180) ذكر ابن حبيب: أن الحمس كانوا لا يخرجون إلى عرفات، ويلزمون مزدلفة حتى يقضوا نسكهم، ويطوفون بالصفاء والمروة إذا انصرفوا من مزدلفة، والطبري، تفسيره (شاعر) 4: 185، والبكري، معجم ما استعجم: 33، والميداني، مجمع الأمثال 1: 362، والسهيلي، الروض الأنف 1: 144، وابن منظور، لسان العرب: (ثبر)، (جمع)، (زلف)، (شرق)، (صوف)، وابن حجر، فتح الباري 4: 348، 349، والبياتي، أصالة الوحدة العربية: 43، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 174، والبياتي، نصوص التلييات قبل الإسلام: 297، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 353، 379-380، 382-383، وفارمر، تاريخ الموسيقى العربية: 17. والمقصود بالتلبية: أشرك بالشمس حتى ندفع من المزدلفة، ونسرع للحر. وزوي: لعلنا نغير.
- (181) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 121. وجاء ذكر ثبير في تلبية كندة، انظر حديثنا عنها فيما مضى، والمصدر السابق: 124. وأشرق: الخطاب موجه إلى جبل ثبير وقت التشريق، والمقصود أشرك بالشمس حتى ندفع من المزدلفة. والدَّهْناء: الدَّهْناء، يُمدُّ ويُقَصَّر، رمال في طريق اليمامة إلى مكة، وقيل: موضع لتيمم بنجد. والقابل: عام قابل، أي مُقبل. ونعنا: لم اهتد إليها.
- (182) البقرة، الآية: 199.
- (183) الأزرق، أخبار مكة 1: 189.
- (184) المصدر السابق 2: 191.
- (185) الطبري، تفسيره (شاعر) 4: 187. والمُعَمَّس: موضع في طرف الحَرَم من مكة. البكري، معجم ما استعجم: 1248، وابن منظور، لسان العرب: (غمس).
- (186) الطبري، تفسيره (شاعر) 4: 187، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (حمس).
- (187) البخاري، صحيح البخاري 2: 200، وانظر ابن حجر، فتح الباري 4: 327، 328. وجمع اسم للمزدلفة. الطبري، تفسيره (شاعر) 4: 176، 178، والبكري، معجم ما استعجم 392، 393، وابن منظور، لسان العرب: (جمع)، (شعر).
- (188) السكري، شرح أشعار الهذليين: 95 يصف حاجاً. وجمع:
- المُزْدَلِفَة. وزاد: يريد رائداً، طالباً. وبيتغي المزج: يعني العسل. وبالسَّحْل: أي يَنْقُذُ الدراهم، والسَّحْل: النَّقْد.
- (189) وقيل: العَدَوِي. الشهرستاني، الملل والنحل: 241، وانظر ابن حبيب، المحبر: 319، 180، ومسلم، صحيح مسلم: 894، والقرطبي، تفسيره 7: 189. والال: اسم جبل بعرفات. البكري، معجم ما استعجم: 185.
- (190) الطبري، تفسيره (شاعر) 4: 187، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 383. وقالوا غير ذلك في هذا المعنى.
- (191) انظر الاختلاف في التسمية، وفي أول مَنْ وليها هو أو والده في: الأزرق، أخبار مكة 1: 186 – 187.
- (192) المصدر السابق 1: 187.
- (193) ابن منظور، لسان العرب: (جمر). وليس في ديوان الهذليين. والأشعث: المُعْبِرُ الرأس الذي تلبّد شعره. والنواصي: واحدها الناصية، وهي مقدّم شعر الرأس. والمُجَمَّر: موضع رمي الجمار.
- (194) ابن هشام، السيرة النبوية 3: 37. والأنصاب: حجارة كانوا يذبحون لها. والجمرات: مواضع الجمار التي يرمون بها. ومغر: جمع أمغر، وهو الأحمر، يريد أنها مطلية بالدم.
- (195) المصدر السابق 1: 125-127، وانظر ابن منظور، لسان العرب: (عرف) وهو فيه لأوس بن مغراء. ولا يَبْرُحُ الناس: لا يزالون. والمُعَرَّف: موضع التعريف، وهو الموقف بعرفات. وأجيزوا: الإجازة الإفاضة. يمدحهم بأنهم يُجيزون الحاج، يعني أنفذوهم.
- (196) الأزرق، أخبار مكة 1: 187.
- (197) ابن هشام، السيرة النبوية 1: 128.
- (198) ذو الإصبع العَدَوَانِي، ديوانه: 46-47، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 127-128. والعذير: مَنْ يعذر، يريد: أي هاتوا من يعذر. ويقال: فلان حية الوادي: إذا كان شديد الشكيمة حامياً لحوّزته، وهم حية الأرض، والمعنى أنهم كانوا ذوي إزب وشدة لا يُضيّعون ثأراً.
- (199) ابن حبيب، المحبر: 180، والشهرستاني، الملل والنحل: 241، وابن حجر، فتح الباري 4: 306، 308، 29: 9، والزرقاني، شرحه 2: 442. وانظر ما يأتي.
- (200) مسلم، صحيح مسلم: 928-930، والفاكهي، أخبار مكة 2: 239-241، والطبري، تفسيره (شاعر) 3: 230-239، 245-246، والبكري، معجم ما استعجم: 1217، 1218، والفاكهي، شفاء الغرام 2: 42، وابن حجر، فتح الباري 4: 308، والزرقاني، شرحه 2: 441-442، وضيف، العصر الجاهلي: 92، وذكر شوقي ضيف أنه "يقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط"، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 380-381.
- (201) ابن حبيب، المحبر: 180.
- (202) الأزرق، أخبار مكة 1: 120، والطبري، تفسيره (شاعر) 3: 231، وابن حجر، فتح الباري 4: 308، والزرقاني، شرحه

- 442:2. (203) الأزرقي، أخبار مكة 1: 120، 178، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 358، 380.
- (204) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 122. والسَّعي: عَدُوٌّ دون الشَّد. والفَيْن: الحَيْنُ، والوقت من الزمان.
- (205) ابن حبيب، المحبَّر: 311، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل: 241.
- (206) البكري، معجم ما استعجم: 1217-1218، وانظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 381.
- (207) في رواية هم وغسان. مسلم، صحيح مسلم: 930، وابن حجر، فتح الباري 4: 307، 29: 596، والزرقاني، شرحه 2: 441.
- (208) مسلم، صحيح مسلم: 928-930، وانظر الزرقاني، شرحه 2: 440-442. والمُشَلَّل: جبل يهبط منه إلى قُدَيْد، وقُدَيْد: واد وموضع، قيل: بين مكة والمدينة.
- (209) مسلم، صحيح مسلم: 930، وابن حجر، فتح الباري 4: 307، والزرقاني، شرحه 2: 441.
- (210) ابن حجر، فتح الباري 4: 307، وانظر 9: 596.
- (211) الأزرقي، أخبار مكة 1: 125، وابن حجر، فتح الباري 307: 4، 9: 596.
- (212) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 122. والصلاة في اللغة: الدعاء والاستغفار، وهي هنا بمعنى التوجَّه بالدعاء والعبادة.
- (213) ضمن عشرة أبيات. عبدالله بن رواحة، ديوانه: 139 - 140.
- (214) البخاري، صحيح البخاري 4: 78-79، 5: 140.
- (215) ابن حجر، فتح الباري 6: 272.
- (216) البخاري، صحيح البخاري 5: 139-140، وانظر مسلم، صحيح مسلم: 1430-1431. وروى أن عامر بن الأكوع ارتجز به في غزوة خيبر، والرسول ﷺ يسمع. انظر مسلم، صحيح مسلم: 1427-1428، 1430، 1440، وابن عبد البر، التمهيد 3: 256. والهُدَى: الرشاد ضد الضلال، واهتدى: أقام على الإيمان. والسكينة: الطمأنينة. والألَى: الذين. وَبَعَوْا: البَغْي، الظلم والفساد. والفتنة: الضلال والإثم. وأَبَيْنَا: امتنعنا علينا.
- (217) ابن منظور، لسان العرب: (حنث) خبر حكيم بن جزام.
- (218) السهيلي، الروض الأنف 1: 158-160، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 369.
- (219) الرِّفَادَة: شيء كانت قريشُ تترافد به في الجاهلية، فيُخْرَج كل إنسان مالاَ بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاَ عظيماً أيام الموسم، فيشترون به للحاج الجُزُر والطعام والزبيب للنبذ، فلا يزالون يُطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج.
- ابن منظور، لسان العرب: (رَفَد).
- (220) ابن هشام، السيرة النبوية 1: 137، 143-144، والسهيلي، الروض الأنف 1: 161.
- (221) هم بنو عبدمناف، والإيلاف: من يُؤْلَفُون أو يُؤْلَفُون أي يُهَيَّئُونَ وَيُجَهِّزُونَ، والمقصود بذلك رحلة الشتاء والصيف.
- ابن منظور، لسان العرب: (ألف).
- (222) ابن حبيب، المحبَّر: 162-164، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية 1: 188، والسهيلي، الروض الأنف 1: 161.
- (223) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 121. والتَّج: سيلان دماء الهُدَى والأضاحي.
- (224) انظرها فيما سبق في الحديث عن الوقوف على عرفات.
- (225) المصدر السابق: 119. وتجتهد: تجدَّ.
- (226) المصدر السابق: 121. والبُذْن: مفرد البَذْنَة، وهي ناقة أو بقرة تتحر بمكة.
- (227) لم أهنِدَ إليها، والذي في معاجم البلدان واللغة: المشعر، وقد سبق تفسيره.
- (228) الطبري، تفسيره (شاذر) 9: 508.
- (229) النابغة، ديوانه: 25. وَمَسَحْتُ كَعْبَتَهُ: أَتَيْتُ بَيْتَهُ وَطُفْتُ بِهِ. والكعبة: كل بيت مُرَبَّع، وبه سُمِّيَت الكعبة. والأنصاب: حجارة كانوا يذبحون عليها العتائر لألهتهم. والجسد: الدَّم اللَّازِق.
- (230) الشهرستاني، الملل والنحل: 241، وانظر زهير بن أبي سلمى، شعره: 86، وابن دريد، الاشتقاق: 342، وابن منظور، لسان العرب: (عتر)، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن 17: 86، 90، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 196، 198، 201-202.
- (231) انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 351.
- (232) المرجع السابق 6: 186، وانظر ص: 188-195.
- (233) المرجع السابق 6: 188، وانظر ص: 422، 423.
- (234) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123-124. والسَّلَم: نوع من العضاء. والعيس: الإبل.
- (235) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 184.
- (236) البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 174.
- (237) اليعقوبي، تاريخه 1: 256. والصَّبُّ والنَّصِيبُ: تغطية الشيء ودخول بعضه في بعض. والمحجَّب: المستتر.
- (238) ابن حبيب، المحبَّر: 312. وبلية: مرّ تفسيرها.
- (239) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 426، وانظر ص: 213، 214، 427.
- (240) انظر حبيب، المحبَّر: 312. وأربابه: الربّ، المالك. والبرية: الخلق.
- (241) انظر علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 184-203.
- (242) انظر الحاشية السابقة.
- (243) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119. والنَّوَال: العطاء. والجلد: القوة والشدة، وقيل: القوة والصبر. والنَّدَى: السخاء والكرم. والدُّرَى: كوكب دُرِّي، ثاقب مضىء، وقيل: الشديد الإنارة؛ والمعنى أن عطاءهم واضح مشهور.
- (244) (مَرَّتْ، وهي: لَبَّيْكَ رَبَّ عَسَّانَ، راجِلُهَا وَالْفُرْسَانُ).

- (245) انظر في ذلك العمري، تلبيات العرب في الجاهلية: 160-161، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي: 2: 183. على أن احتمالاً آخر أذهب إليه في هذه التلبية هو أن لا يكون الملبون بها قصدوا في "الإسلام" فيها الإسلام الشرعي الذي يعني إظهار الخضوع وإظهار الشريعة، وإنما الإسلام اللغوي الذي يعني الانقياد، بما تحمل هذه اللفظة من دلالة على معنى الخضوع؛ فبأيهما قصد الملبّي في تلبيته فإن قصده لا يخرج عما نحن بصدد الحديث عنه. انظر ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
- (246) (قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 122، وانظر البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 183. والأقوال: جمع قِيلَ، وهو الملك النافذ القول والأمر. والنهي: العقول والألباب. والأحلام: العقول، جمع الحِلْم، وهو الأناة والعقل. والأرحام: الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء. والآثام: الذنوب، جمع إثم. والتترّهُ: التّباع. ودَلُّوا: خضعوا.
- (247) (اليعقوبي، تاريخه: 1: 256.
- (248) ابن حبيب، المحبّر: 315. وانظر البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 156. ولقاح: أي لم يدينوا للملوك ولم يُملَكُوا ولم يُصنِّهم في الجاهلية سباء. وحرّمتنا على أسيّة الزّماح: أي حرّمت قتلنا.
- (249) ابن أسد بن عبد العزّي، وهو أحد الأربعة الرافضين للوثنية، وكانوا تفرّقوا في البلدان يلتصقون الحنيفية. ابن هشام، السيرة النبوية 1: 237-238.
- (250) (السهيلي، الروض الأنف 1: 255.
- (251) مرّت، وهي: لَبَّيْكَ، كُنَّا كُنُوْ، وَكُنَّا لِنُعْمَةٍ جَحُوْ. وانظر ابن حبيب، المحبّر: 314.
- (252) غمط الحقّ: جده، وغمط النعمة والعافية: لم يشكرها. ابن منظور، لسان العرب: (غمط).
- (253) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123. وقلاص: مرّ تفسيرها. والحنيات: مفردا حنية، وهي القوس. والنّشَم: شجر جبلي تتخذ منه القسي، وهو من عُثِق العيدان.
- (254) (المصدر السابق: 121. وقلاص: مرّ تفسيرها. ومرهفات: يقال فرس مُرْهَفٌ: لاحقُ البطن خميصُه متقارب الضلوع وهو عيب. وهُجْنَا: الهجان من الإبل البيضاء الخالصة اللون. والحزن: ما غلظ من الأرض وارتفع.
- (255) التلبية مرّت وتفسير المفردات كذلك. وانظر المعري، رسالة الغفران: 535.
- (256) ابن حبيب، المحبّر: 313. والشّداد: الشديدة القوة الصلبة. والناحية: الناقة السريعة تتجو بمن ركبها. وقد ورد الشطر الأخير في تلبية اليمن برواية أخرى ذكرها (قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 121) وهي: * على قلاصٍ ناجيةٌ * وقلاص: مرّ تفسيرها.
- (257) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119-120. وأدلت: مرّ تفسيرها.
- (258) البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 174، وانظر البياتي، أصالة الوحدة العربية: 4، والبياتي، نصوص التلبيات قبل الإسلام: 297.
- (259) انظر البياتي، أصالة الوحدة العربية: 42-43، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 149، والبياتي، نصوص التلبيات قبل الإسلام: 270.
- (260) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 379، ولعلّ ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبّى داعيه، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته.
- (261) ابن حبيب، المحبّر: 313، وانظر ابن الكلبي، الأصنام: 23-24. وغرابا عكّ: أغرية العرب، سُدائهم، شُبّهوا بالأغرية (جمع غراب وهو طائر أسود) في لَوْنهم. والشّداد: الناجية: ومرّ تفسيرهما.
- (262) انظر البياتي، أصالة الوحدة العربية: 43.
- (263) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 124، وانظر الفاكهي، أخبار مكة 2: 282. ومرّ تفسير المفردات فيها.
- (264) انظر مصادره فيما سبق.
- (265) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 117. وفَدَك: قرية بالحجاز.
- (266) انظر البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 155.
- (267) انظر ابن الكلبي، الأصنام: 25-26، وابن هشام، السيرة النبوية 1: 84-85، وابن حبيب، المحبّر: 31، والأزرق، أخبار مكة 1: 119-120، وياقوت، معجم البلدان 1: 202-203، وابن منظور، لسان العرب: (أسف)، (نول)، والبيغدادي، خزائن الأدب 7: 22، 228، والسويدي، سبائك الذهب: 436، والآلوسي، بلوغ الأرب 2: 201، 205-206، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 154، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 266-267.
- (268) انظر البكري، معجم ما استعجم: 1016، وياقوت، معجم البلدان 4: 270، وابن منظور، لسان العرب: (فدك).
- (269) انظر البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 155.
- (270) انظر تلبية بني أسد (قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119)، وهي: فِينَا النَّدَى الدَّرِيّ والعَدَدُ، دُو المَالِ والبَنُونِ فِينَا والوَلَدُ.
- (271) انظر قوله تعالى: (فاسْتَقْتِهِمْ أَلْرَبَّكَ النَّبَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) وقوله تعالى: (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) الصافات، الآية: 149، والطور، الآية: 39 على الترتيب، وكذلك الإسراء، الآية: 40، والزخرف، الآية: 16، والصافات، الآية: 153، والنجم، الآيات: 19-23، والنحل، الآية: 57، وابن الكلبي، الأصنام: 35، والآلوسي، بلوغ الأرب 2: 203-204، والبياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 155، والبياتي، نصوص التلبيات قبل الإسلام: 276-277، وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6: 165-166.

- (272) مثل ظاهرة وأد البنات. انظر الحوفي، الحياة العربية: 73-74، 148-153، والحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي: 230-240، وضيف، العصر الجاهلي: 72، 75، والعتوم، قضايا الشعر الجاهلي: 352-353، والعمري، مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: 34-35.
- (273) ابن منظور، لسان العرب: (مجد). وماجد: مفضل كثير الخير شريف.
- (274) البروج، الآية: 15. والمجيد: الكريم على قراءة من قرأ "المجيد" بالرفع على أنه صفة لله تعالى. انظر الطبري، تفسيره (بولاقي) 89:30، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4:497.
- (275) ابن الكلبي، الأصنام: 49 - 50، 67 - 68، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن 29:53.
- (276) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 119-120. ومّر تفسير المفردات فيها.
- (277) انظر البياتي، دراسات في الأدب الجاهلي 2: 171.
- (278) انظر في ذلك ابن منظور، لسان العرب: (جهر).
- (279) وكذلك قوله: «حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً»، النساء، الآية: 153، والبقرة، الآية: 55 على الترتيب، وانظر الطبري، تفسيره (شاكِر) 80:2، 81-80، 9:358، وابن منظور، لسان العرب: (جهر).
- (280) ابن حبيب، المحبّر: 312. وجبار، والمنار: مرّ تفسيرهما. والملة: الشريعة والدين.
- (281) مرّ ذكرها والتعليق عليها، وهي: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، عَنِ الْمُلُوكِ الْأَقْوَالِ، ذَوِي النُّهَى وَالْأَحْلَامِ ...
- (282) قطرب، الأزمنة وتلبية الجاهلية: 123. وقوك: لم اهتد إليها.

المصادر والمراجع

البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل. 1313هـ. صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. 1980م. حاشية على شرح بانث سعاد لابن هشام، تحقيق نظيف محرم خواجه، دار فرانتس شتاينر، فيسبادن.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. 1979م - 1986م. خزنة الأدب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط 1-2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض.

البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق وضبط وشرح مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت.

البياتي، عادل جاسم. 1981م. أصالة الوحدة العربية في أقدم النصوص الدينية (تليبات الجاهلية)، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، السنة 4، العدد 28، حزيران (يونيو).

البياتي، عادل جاسم. 1982م. نصوص التليبات قبل الإسلام: ومضات من وحدة الفكر والمصير، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، العدد 11.

البياتي، عادل جاسم. 1986م. دراسات في الأدب الجاهلي، (د.ن)، بغداد.

بيلو، صالح آدم. 1989م. تيارات عقيدة وثقافية في الأدب الجاهلي، مطابع الصفا، مكة المكرمة.

الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى. 2002م. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، ط 1، دار ابن حزم، بيروت.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر. 1979م. القيان (رسائل الجاحظ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر. البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط 2، دار الجبل، بيروت.

الجبوري، يحيى. 1986م. الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، ط 5، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الجرجاني، علي بن محمد الشريف. 1990م. التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1990م.

الجكني الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد. 1995م. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت.

الحارث بن جلة. 1993م. ديوانه، إعداد طلال حرب، ط 1، الدار العالمية، بيروت.

الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله. المستدرک على الصحيحين في الحديث، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض.

الحوفي، أحمد محمد. 1949م. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

ابن الذبيع الشيباني، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي. 1927م. تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول (ص)، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

ابن الكلبي، هشام بن محمد. الأصنام، تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم. 1970م. قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، المكتب الإسلامي، بيروت.

ابن حبان، أبو حاتم، محمد بن حبان. 1993م. صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن حبيب، أبو جعفر، محمد بن حبيب. 1942م. المحبر، تصحيح إيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد بن علي. 1995م. تلخيص الحبير، علق عليه أبو عاصم حسن بن عباس ابن قطب، ط 1، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد بن علي. 1996م. فتح الباري، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، دار الفكر، بيروت.

ابن حنبل، أحمد بن محمد. 1995م. المسند، شرح أحمد محمد شاكر، ط 1، دار الحديث، القاهرة.

ابن دُرَيْد، أبو بكر، محمد بن الحسن. 1958م. الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبدالله. 1967م. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى ابن أحمد العلوي وآخرين، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط.

ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر. (د.ت). تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، بيروت.

ابن منثور، أبو الفضل، محمد بن مكرم. (د.ت). لسان العرب، ط 1، دار صادر، بيروت.

ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أبو الحواري، محمد بن الحواري. 1994م. الذرية وكنز الغنية في منتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية من تفسير القرآن الكريم، تحقيق وليد عوجان، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة مؤتة، الكرك.

الأزرقي، أبو الوليد، محمد بن عبد الله. 1996م. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط 8، مكتبة الثقافة، مكة المكرمة.

الألوسي، محمود شكري. 198-199م. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري، دار الشرق العربي، بيروت.

أوس بن حجر. 1979م. ديوانه، ط 3، دار صادر، بيروت.

الحُوفي، أحمد محمد. المرأة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة.

خفاجي، محمد عبد المنعم. 1992م. الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ط1، دار الجيل، بيروت.

خُفاف بن نُذبة السُّلَمي. 1968م. شعره، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد.

ذو الإصْبَع العَدَواني. 1973م. ديوانه، جمع وتحقيق عبدالوهاب محمد علي العَدَواني ومحمد نائف الذُّلَيْمي، مطبعة الجمهور، الموصل.

الرُّزْقاني، أبو عبدالله، محمد بن عبد الباقي. 1997م. شرح الرُّزْقاني على موطأ الإمام مالك، ط1، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

الرَّمْخُسري، أبو القاسم، محمود بن عمر. 1982م. أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.

الرَّمْخُسري، أبو القاسم، محمود بن عمر. 1996م. الفائق في غريب الحديث، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

زُهَيْر بن أَبِي سُلَمَى. 1980م. شعره، تحقيق فخر الدين قباوة، ط3، دار الأفاق الجديدة، بيروت.

السُّكْرِي، أبو سعيد، الحسن بن الحسين. 1965م. شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فَرَّاج، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

السُّهَيْلي، أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله. 1978م. الروض الأنف (بهاشم السيرة النبوية)، تعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة، بيروت.

السُّوَيْدي، أبو الفوز، محمد أمين بن علي. 1986م. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشافعي، محمد بن إدريس. 1996م. الأم، تحقيق أحمد بدرالدين حسون، ط1، دار قتيبة، بيروت.

الشَّهْرِسْتَانِي، أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم. 1981م. الملل والنحل، ط1، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.

ضيف، شوقي. 1977م. العصر الجاهلي، ط3، دار المعارف، القاهرة.

الطَّبْرِي، أبو جعفر، محمد بن جرير. 1327هـ - 1329هـ. تفسير الطَّبْرِي = جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق.

الطَّبْرِي، أبو جعفر، محمد بن جرير. 1957م - 1969م. تفسير الطَّبْرِي = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

عباس، إحسان. 1973م - 1977م. نصان جديدان عن الدين في الجاهلية، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة 26.

عبدالله بن رَوَاحَة. 1988م. ديوانه ودراسة في سيرته وشعره، وليد قَصَّاب، ط2، دار الضياء، عَمَّان.

عَبِيد بن الأَبْرَص. 1994م. ديوانه، شرحه عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت.

العتوم، علي. 1984م - 1985م. قضايا الشعر الجاهلي، ط1، مكتبة الرسالة الحديثة، عَمَّان.

العُقَيْلي، محمد ارشيد. 1980م. اليهود في شبه الجزيرة العربية، ط1، (د.ن)، (د.م).

عَلْقَمَة الفَحْل. 1969م. ديوانه، تحقيق لطفي الصَّقَّال ودرية الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي، حلب.

علي، جواد. 1980م. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط3، مكتبة النهضة، بغداد، ودار العلم للملايين، بيروت.

عَمْرُو بن قَمِيْثَة. 1965م. ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادي عشر.

العمري، لبلى. 1988م. الشعر الجاهلي في تفسير الطبري، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عَمَّان.

العمري، لبلى. 1995م. مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عَمَّان.

العمري، لبلى، 2005. تلبيات العرب في الجاهلية، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 21، العدد 4+3.

عَنْزَة العبَّسي. 1983م. ديوانه، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت.

العَيْنِي، أبو محمد، محمود بن أحمد. 1348هـ. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تصحيح وتعليق شركة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية في القاهرة، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

فارمر، هنري جورج، ترجمة حسين نصار. 1956م. تاريخ الموسيقى العربية، مكتبة مصر، القاهرة.

الفاسي، أبو الطَّيِّب، محمد بن أحمد. 1956م. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

الفاكهي، أبو عبدالله، محمد بن إسحاق. 1994م. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط2، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ودار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الفَرَّاء، أبو زكريا، يحيى بن زياد. 1980م. معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط2، عالم الكتب، بيروت.

الْفَيْرُوزَابَادِي، أبو طاهر، محمد بن يعقوب. 1986م. القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الْقُرْطُبي، أبو عبد الله، 1933م - 1964م. محمد بن أحمد. تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

القُسْطَلَانِي، أبو العباس، أحمد بن محمد. 1996م. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ضبط وتصحيح محمد عبدالعزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية.

قُطْرُب، أبو علي، محمد بن المُسْتَنِير. 1985م. الأئمة وتلبية الجاهلية، تحقيق حنا جميل حداد، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء.

الحُوفي، أحمد محمد. المرأة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة.

خفاجي، محمد عبد المنعم. 1992م. الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ط1، دار الجيل، بيروت.

خُفاف بن نُذبة السُّلَمي. 1968م. شعره، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد.

ذو الإصْبَع العَدَواني. 1973م. ديوانه، جمع وتحقيق عبدالوهاب محمد علي العَدَواني ومحمد نائف الذُّلَيْمي، مطبعة الجمهور، الموصل.

الرُّزْقاني، أبو عبدالله، محمد بن عبد الباقي. 1997م. شرح الرُّزْقاني على موطأ الإمام مالك، ط1، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

الرَّمْخُسري، أبو القاسم، محمود بن عمر. 1982م. أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.

الرَّمْخُسري، أبو القاسم، محمود بن عمر. 1996م. الفائق في غريب الحديث، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

زُهَيْر بن أَبِي سُلَمَى. 1980م. شعره، تحقيق فخر الدين قباوة، ط3، دار الأفاق الجديدة، بيروت.

السُّكْرِي، أبو سعيد، الحسن بن الحسين. 1965م. شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فَرَّاج، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

السُّهَيْلي، أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله. 1978م. الروض الأنف (بهاشم السيرة النبوية)، تعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة، بيروت.

السُّوَيْدي، أبو الفوز، محمد أمين بن علي. 1986م. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشافعي، محمد بن إدريس. 1996م. الأم، تحقيق أحمد بدرالدين حسون، ط1، دار قتيبة، بيروت.

الشَّهْرِسْتَانِي، أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم. 1981م. الملل والنحل، ط1، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.

ضيف، شوقي. 1977م. العصر الجاهلي، ط3، دار المعارف، القاهرة.

الطَّبْرِي، أبو جعفر، محمد بن جرير. 1327هـ - 1329هـ. تفسير الطَّبْرِي = جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق.

الطَّبْرِي، أبو جعفر، محمد بن جرير. 1957م - 1969م. تفسير الطَّبْرِي = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

عباس، إحسان. 1973م - 1977م. نصان جديدان عن الدين في الجاهلية، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة 26.

عبدالله بن رَوَاحَة. 1988م. ديوانه ودراسة في سيرته وشعره، وليد قَصَّاب، ط2، دار الضياء، عَمَّان.

عَبِيد بن الأَبْرَص. 1994م. ديوانه، شرحه عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت.

- النَّووي، أبو زكريا، يحيى بن شرف. 1972م. شرح النووي على صحيح مسلم، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- النَّيسابوري، الحسن بن محمد . 1327هـ - 1329هـ. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (بهامش تفسير الطبري)، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق .
- وَزَقَّة بن نَوْفَل. 2009م. شعر ورقة بن نَوْفَل: جمع ودراسة، عمر عبدالله الفجّاوي وريم فرحان المعايطه، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل - إصدار العلوم الإنسانية والإدارية، المجلد العاشر، العدد الأول.
- ياقوت الحَمَوِي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله. 1990م. معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- اليَعْقُوبِي، أحمد بن أبي يعقوب. 1960م. تاريخ يعقوبي، دار صادر ودار بيروت، بيروت.
- لَبِيد بن رَبِيعَة. 1962م. شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
- مجمع اللغة العربية. 1985م. المعجم الوسيط، ط3، دار عمران، القاهرة.
- مُسْلِم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج. 1954م. صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المَعَرِّي، أبو العلاء، أحمد بن عبد الله. 1950م. رسالة الغفران، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن، ط4، دار المعارف، القاهرة.
- المِيدَانِي، أبو الفضل، أحمد بن محمد. 1992م. مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- النَّابِغَة الذُّبْيَانِي. 1977م. ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

The Prayers of Answering of Religious Calling of the Jahiliya (Pre Islamic Arabs)

*Laila T. Al-Omari**

ABSTRACT

The study sheds light on the features of religious life in the Jahiliya age through studying the Jahili “answering of callings” in a manner restricted to the themes constituting a general phenomenon therein, and which researches the general rituals, and the palpable religious works, and the spiritual supplications undertaken by the Jahili Arabs. The purpose was to achieve tangible material rewards. These topics have been under the aegis of three major titles that included the prayers of the Jahili Arabs towards the gods, the rituals of their pilgrimage, their religious festivals. This has been based on the researcher’s gaging common features. In effect, the researcher has found that the religious characteristic of the “answering of callings” in addition to the materialist nature of the Arabs are the predominant feature of these prayers.

The study addresses, likewise, secondary themes gathered by the scholar in a single topic. Each of these topics- in terms of the size of the material and contents- does not constitute a separate subject. These are themes- interpretatively- that are related to their religious life, particularly in terms of their materialist view of their gods, and also in terms of their relationship to their gods based on a feeling of weakness and fealty. However, this feeling is absent in the relationship of one of the high-class social classes- the kings’ class, for example. In effect, the “answering of callings” has indicated a relationship involving an air of superiority.

The connections between the answering of calling for the Arabs before Islam, and the nature of their religious life - had an effect on the various answerings of calling in so far as performance and content. Such variety is based, in their totality, on pleasing their gods and gaining affinity to them through various means, some of which have been addressed in the course of this study.

Perhaps the researcher intended through the study to add what is new insofar as what has been known about religious life in the Jahili age with respect to verse and chronicles and, moreover, to add detail to the discussion of some of their aspects given that the Jahili “answering of callings” constitutes a broader discussion and a fuller reference.

Keywords: prayers; ‘pilgrimage; responding to Allah the Al-Mighty’; supplication

* Faculty of Arts, The Hashimite University, Jordan. Received on 2/6/2014 and Accepted for Publication on 21/9/2014.

